مناهل الغمام
ريمه الخاني
رواية

رواية

مناهل الغمام

ريمه عبد الإله الخاني

الإهداء:

إلى كلّ الأصيلات، اللواتي لم يتزحزحن عن التمسّك بقيَمِهن التي آمنَّ بها..
وإلى كلّ من عرف طريق الهدى، فمضى فيه واثقاً...
وإلى كلّ من أحب الوطن.. وكلّ من استعصى عن يد الغدر والخيانة..
أهدي روايتي هذه..[1]

ريمه

[1] الموافقة في 5-9-2011، نشرت عام 2013. الحقوق محفوظة.

تقديم:

عندما ينبض حبّ الوطن في القلوب، تنبت فيها أوراقا خضراء، تشدّنا إلى الأصالة..
لم تكن "أصيلة"، بطلة الرواية، شخصية واقعية من لحم ودم، لكنها في مسار الحياة يمكن أن نجدها حولنا، وفي كلّ مكان، فهي الفتاة، والمرأة، والأم.. وهي أيضاً هرم من المشاعر والأحاسيس، وحتى من كان يدور في فلكها من شخصيات أخرى، فهم أيضاً في مسار الحياة متواجدون بصفاتهم وأخلاقهم..
لقد فرضت "صنعة" الرواية أن يختلط الواقعي بالمتخيّل، وأن تجنح في كل حال للتعبير عن مشاعر المرأة، وظروفها، وفرحها ومعاناتها، ثم صراعها مع الذات ومع الآخر لتكريس قيمتها المثلى في هذه الحياة.
لقد وظّفتُ من خلال "صنعة الرواية" مجموعة رموز لم تكن مغرقة بالتوصيف، بل كانت لحاجة الرواية، وقد لا أكون قاصدة ذلك عن عمد، بل فَرضت الفكرة نفسها، وما أستطيع أن أدركه جيداً أنني وظّفت أيضاً الرؤية الذاتية والواقع والخيال، كي أقدّم رسالة..
مع أصدق تمنياتي أن تصل بقيَمِها ومدلولاتها الحقيقية إلى القارئ العزيز.

البداية..

لم أكن أتوقّع أن أمضي راضية، وعلى خط مستقيم، إلى مصيريَ الغريب، كي أبقى وحيدة، بعد أن اعتقدت أنني ممزوجة بروح الحياة، وعطر الحقيقة!

لن أنسى تلك الأوراق، وقد لهثت كي أفتح أسرارها، وتلك الرقعة الجلدية التي لم أكن أتوقع أنها مكمن دائي، ومصدر متاعبي، ليتني فعلت ما كان يجب أن أفعله، كنت وحدي من يعرف الطريق الصحيح، وربما نسيته في وقت ما, ربما كانت حقيقة الأمر بعيدة عن تخيلي وخيالي، أو ربما أصابها غبش ما في وقت ما..

وسأبقى أعيش حالات تأنيب الضمير، وسط قلقي الإنساني المتعب.!

هل خانني وفائي للأمانة التي كنت أعتقد أنني خير من يحملها.؟

أسطّر في روايتي هذه آلاماً إنسانية حقيقة، لا يشعر بها إلا من كان وسط نارها، واكتوى بها.

أن أشعر بعد كلّ هذه السنوات بأنني كنت لصيقة أحداث خطيرة لم أستثمرها جيداً، وأنني كنت في مرمى أحداث كنت أبحث عنها، ورغم توفر كل أدوات الحياة الكريمة بين يديّ، إلا أن جراحي بقيت غائرة في العمق، تنزف قيحاً قبل أن تسيل على الورق...

لم أتوقع يوماً ما أنه سيأتي لإنقاذي من حاول، بشكل غير مباشر، أن يلفَّ حبل المشنقة حول رقبتي وحياتي..

وحدها طفلتي الصغيرة التي كانت تلملم عثراتي، وتعلّبها، وتجمع شذرات حياتي بمحبة خفيّة مضمّخة بإشارة استفهام كبيرة تنوء، حتى هي، بحملها، أدهشتني كيف سطّرتها بدقة متناهية تفوق ما سطّرتُه بمراحل كبيرة، وكأنها كانت تقرؤني طوال هذا الوقت...

و كأنني كنت أعيش حياة أخرى بين يديها، كيف حصل هذا في غفلة عن عينيّ! لست أدري، ولم يعد يهمّ كلّ ذلك، الآن..

. . .

بطلة الرواية /أصيلة

تجري أحداث هذه الرواية بين العام 1973 و2011

تحكي عن قصة فتاة مترفة لم تقدر أن تستغل أدوات حياتها الموفقة الاستغلال الحسن في حين، كانت تملك من الأدوات المناسبة ما يوفّر لها ذلك.

ويبقى السؤال: كيف تأتي الزلات، ثم نقع فيها، على الرغم من حرصنا..

هل نتوقّع في زيادة الحرص النقيض..!؟

. . .

بداية حارقة

أغلقت والدتي الهاتف وهي تصرخ باكية:

. كان الله في عونك يا أم فارس

هرعتُ إليها متسائلة بلهفة:

. ماذا هناك يا أمي؟؟؟

. لقد مات فارس في حادث سيارة، بعد أن أصرّ صديقه على قيادة سيارة والده خفية...

. لا حول ولا قوة إلا بالله، ولكن، كيف حدث ذلك؟

. لا وقت للشرح يا أصيلة، سوف أخرج الآن لأراها، كان الله في عونها.

. سآتي معك..

صرختْ أمي في وجهي كما لم تصرخ من قبل:

. كفّي عن فضولك الآن يا أصيلة، لا مجال للنقاش، امكثي هنا أقول لك لأستطلع الأمر..

كالعادة، سرحت في مساحات خيالي، أجترّ مائة سؤال وسؤال، وأمرر فضولي على ميادين الأحداث، وأردد في سري وعلني احتمالات غبية، وكأنني أعلل وأبحث وحدي كمحقق لم يُعطَ بعد الإذن بالشروع بمهمة التحقيق، أطرح وحدي سؤالاً وأجيب وحدي كذلك:

. أصيلة اجلسي.. ما بكِ.؟

. عليَّ أن ألحق بوالدتي، يجب أن ألحق بها.!

انصرف أخي محمد عني بنظراته واهتمامه،وكأنه يعرف مسبقا عنادي وإصراري, أدارَ وجهه بسخرية، فوجدتها فرصة سانحة لاتخاذ قراري وحدي..

ارتديت ملابسي على عجل في غفلة من انتباه أخي .. مدمن مشاهدة أفلام الكرتون..

كانت جارتنا أم فارس تقيم في شقّة بالطابق الثالث، ونحن في شقة من الطابق الرابع ، وكنت أميّز صوتها الصداح عند أي قطرة ماء تصيبها من جراء تنظيف الشرفة! كانت مرعبة بحق، لكن صوتها اليوم كان حزينا جداً، وكأننا نسينا كل ما مضى الآن، خاصة من مفارقات ومن جدل عقيم، ومزعج، كأنه مضى وانقضى..

خرجت الممرضة لتوها من منزل أم فارس عندما وصلت، وهي تحمل محفظتها بهدوء ورزانة، وكأنها لم تنتبه لوجود "أم فارس" المفجوعة، والمتألمة حرقةً، وكأنها تروس في آلة حديدية تقوم بعملها وتمضي دون صوت !!

شاهدتني والدتي، فزوت ما بين عينيها غضبا لحضوري المفاجئ، فقد كانت تتوقعه، لكنني تجاوزت نظراتها الغاضبة عن عمد، وجلست قريبا منها، أرى أم فارس مفتّحة عيناها، لا ترفّ، مستلقية دون حراك في سريرها، ثم نادت بهدوء:

. فارس ..فارس.. أين أنت يا ولدي.. أتراه لم يعد بعد؟

كان ابنها فادي، توأمه الحقيقي ، ذو طلعة سمراء مشرقة، لكن وجهه الآن بدا مكفهرّاً جدا وكاسفا، حزيناً من وقع المفاجأة، وغالباً ما كنا نخطئ في ترديد اسمه عندما نناديه، ونحن نلعب في مدخل العمارة، عندما كنا صغاراً، وها هو الآن يقدم لنا القهوة، ولم أكن اعرف حتى هذه اللحظة، كيف أتناول القهوة كالكبار، حاولت الاعتذار، لكنه أصرّ بإلحاح أحرجني، واضطرني لأتناول الفنجان بخجل واستحياء، مستجيبة لنظرات بدت لي وديّة، وخجولة في الوقت نفسه.

بعد ثرثرة فاترة عن أحوال السوق وأسعار الخضار والمناخ كما تجري عادة النساء في الأحاديث الودية الممزوجة بمجاملات مصطنعة، لفتت نظري وجعلتني أصيخ السمع باهتمام، ولمحت حين كنا نهمّ بالخروج، زجاجة شراب كحولي في المطبخ.! كانت مفتوحة، وهذا أمر طبيعي بالنسبة لهم كأسرة، لكن ربما زاد تناولهم لتلك الأصناف في هذه الظروف الاستثنائية، وقد زاد هذا من هواجسي المريبة في هذا الظرف الخاص.

عدت مع والدتي إلى فراشي الهانئ، أعاين كسلي من جديد، بعد أن شنّفت أذني بتأنيب والدتي الشديد، كالعادة، مما يفرض عليّ أن أقوم على تهدئتها بطريقتي، وبعد إتمام ترتيب المطبخ وإعداده من جديد للوجبة التالية.

عاد الكسل ليتسرب من جديد في أنحاء جسدي، أرتفع قليلا عن وسادة السرير، لأرى صورتي مطبوعة في المرآة المواجهة لي، أرتب شعري بسرعة، بمشط لا يفارقني إلا قليلا، وعلى الرغم من أن شعري الأسود المموج، يحسدني عليه كثيرون ممن أعرف، إلا أنني لست راضية عنه تماما، فهو بوضعه الحالي يجعلني حائرة كيف أنسقه ليبدو أكثر طولا.

كنت عاقدة العزم، أن أصحو باكرا كي أرتب خزانة ملابسي الممتلئة بالفوضى في كل الأوقات تقريباً، ..ولكن عبثا، أسهو بين فينة وفينة، وتأخذني متاهات أحلام اليقظة بعيداً جداً..

ترى، هل ما زلت أحلم أن أكون اسما هاما ولامعا في يوم من الأيام.؟

نعم، هو حلمي الكبير الذي لن أتخلى عنه أبداً..

كأنني رأيت فارس، يقفز من صفحة المرآة، ويحملق في وجهي، ثم يأخذ بيدي، ويجرّني، بصمت وهدوء، إلى ساحة المالكي في دمشق كي يريني ما الذي حدث قبل أيام، كان وجهه أمامي، كما هو، وكأنه أمامي بشحمه ولحمه..

لم أدر معنى حزني لفراقه، نعم لقد حزنت على فراقه، كيف يأخذه الموت منا فنغرق في الحزن، ونحن جيران فقط! ربما هو الشعور الإنساني العام خاصة بالنسبة لأم مثل أم فارس، رغم انه كان يسبب لها بين الفينة والفينة مشكلات مع الجيران وجيران الجيران كادت تمتد للحي المجاور، هو مشاغب بجدارة وأخته أسما الكبرى فشلت في تخليصه من قسوة روحه الاجتماعية التي كادت تودي به إلى التهلكة، حيث أن حرصه على نفسه لم يكن حاضرا في كل الأوقات، وعشوائية حركته وسلوكه كان يصيب أهله بالذهول والحيرة.

فجأة.. دوى صوت انفجار عظيم، ونحن في دوار ساحة "المالكي" جعلنا نهبا لمفاجأة صاعقة:

. بابا دم.. والله دم.!

. هذا أبو فارس ابن الـ

. وما الذي جاء به إلينا الآن؟

. نصيب ..كله نصيب..

انزلوا واذهبوا إلى الصيدلية لتروا ماذا جرى لمحمد، وأنا أسوّي الأمر هنا مع أبو فارس..

كانت والدتي تتشاءم من صوت كسر الأواني الزجاجية جدا، فما بالها الآن صامتة؟

هل كان هذا فألا سيئا؟ أم لدينا في طوايا النفس مواطن صمت وألغاز محيرة حتى على أنفسنا؟ والغريب في أمرنا أننا في الأمور الطارئة غالباً، نسجل ردة فعل فريدة وغريبة، لا يملك مفاتيح تفسيرها إلا نحن؟

يتحول الأمر فجأة إلى مشادّة كلامية تنتهي أخيرا بحل حازم طرحه الشرطي الذي أنهاها بغرامة مالية يدفعها "أبو فارس" قبِلَ بها مكرهاً وهو يتبرَّم، على الرغم من إصراره الدفاع عن نفسه مبررا الأسباب في أن والدي هو من انزاح عن الطريق القويم وكأنه سرح قليلا وهو يقود السيارة..

هل تراني كنت أسرح أنا أيضاً في متاهات فكري المتوقّد حينها؟

ما أعرفه أن أبو فارس رجل محترم جدا كما يقول والدي, لكن الظروف كانت تضعنا دوما على محك مفاجئ غريب!

لقد كانت دموع أمي الصامتة تذكرني بأيام غارقة وراء ضباب، عندما كانت تتشاكس مع والدي، وتجهل كنه تلك الخلافات ومسبباتها الحقيقية، وكلّ يدافع عن وجهة نظره وكأنه وحده فقط من يملك ناصية الفكر الصائب، .كانت تخرج من غرفتها وكأن شيئا لم يحدث، وكنت أعتبر تصرفها الرزين هذا مُدهشاً..

كذلك والدي، فقد مضى راضياً بما جرى، ولم يكرر الحديث حول هذا الموضوع المزعج، كان ثمنه عدة غرزات على جبين أخي، وبعض رضوض بسيطة في أجسادنا النحيلة.

أضاء نور الشمس غرفتنا صباحا، كانت قوية لافحة منذ الصباح، ورائحة النوم تعج فيها، وأخي القابع في سريرة الغريب بدلال، يجعني أتساءل بيني وبين نفسي:

. لماذا لم يهيأ لأخي الوحيد هذا غرفة مستقلّة، أو سريراً يناسبه وينجيه من النوم على هذه الكنبة الطويلة، جافية الحواف في هذا الصالون الفاخر..

ما زال صوت والدي يزجي إلينا حكما تربوية، أسمعها جيداً، وتهبط في مطار فكري، ولا أجد لها مدرجا.

يتحدث مع صديقه بالهاتف:

. عندما ينتهي دور أي إنسان في حياتك، سوف يختفي من تلقاء نفسه بطريقة ما، وبقدرة قادر، وسيضمر دوره رويدا حتى عبر أجزاء فكرك، لن يهم حينها السبب، هل هو خلاف غريب، أم بسبب الظروف الحياتية المتحولة.؟ لنكن على يقين من أنه لا يصح أخيراً إلا الصحيح ، كل شيء في هذا الكون محكم التكوين والتلوين , ويضمر حكما خفية, فلماذا نعيها متأخرين؟

أرى أمي الآن تصلي , وتقوم بواجباتها على أكمل وجه، لكنني أجد بيني وبيني, أن والدي أقوى إيمانا وأصلب في الملمات...

. عالم العقارات، كما يقول والدي عالم رائع رغم أنه متقلب جدا , أراه يستحق المغامرة والاقتحام، لو بقينا نعتمد على مردودات الجامعة والوظيفة هذه لمتنا من الجوع يا رجل..

التفت نحوي فجأة، وكنت أنصت باهتمام إلى كل كلمة يقولها:

. أنت بالذات اعتبري ما قلته ممسوحا من ذاكرتك، أفهمتِ؟ وهذا فارس لا تكلميه أبدا حتى لو بتحية عابرة، لا نريد أن تصلنا ريح مشاكله فنحن بغنى عنها، وعندما تلعبوا في مدخل العمارة، لا تلعبوا إلا مع البنات، وإذا لم تلعبوا في مدخلها يكون أفضل.. هل فهمتِ ؟

. نعم

. قولي نعم بصوت مرتفع

. حاضر يا أبي

. حسناً.. هكذا أريدك صلبة وغير مترددة.. مشوار الانحدار يبدأ مع أول تردد..

كان وعيي المفاجئ على دهاليز شخصية والدي التي تلفت نظري كل يوم وكل حين تبهرني بقوة، وتجعلني أحاول ارتداءها بشكل ما، وتبقى بعض إشارات استفهام عالقة في عقلي اللحوح، لا تبددها سوى المعاينة الميدانية..

يا لي من فضولية عمياء صماء.

فتحت عينيّ الآن على أحداث حرب 1973 عندما كانت حرب تشرين التحريرية المفاجئة فجر عظيم يلف الجميع بحنان الوطن بشكل منقطع النظير..

ليصدح صوت والدتي من جديد غاضبة:

. أين أنت يا أصيلة، تعالي ساعديني بإعداد الفطور.

ألبيها بسرعة، وأقف أمام حوض تنظيف الأطباق مهتاجة وكأنني خرجت من معمعة وضوضاء تحاصرني وتلجمني بقسوة، وقد فرضت نفسها عليّ قسراً، تصرخ ثانية:

. ماذا كسرت يا بنت؟

. . .

في بيت الحد الكبير

فُتح باب الشرفة فجأة على أثر الضغط الذي سببه صوت الانفجار الهائل، وسرعان ما أطلقت صفارات الإنذار أبواقها معلنة عن حدوث أمر طارئ تزامن مع عودة أخي من المدرسة، وكنت قد عدت قبله كما العادة.. ووسط هلعنا، سارعت أمي بإغلاق الأبواب والنوافذ التي تصدّع زجاج بعضها، وأمرتنا النزول دون إبطاء إلى قبو العمارة..

ونحن نهمّ بالنزول، فجأة رنّ جرس الهاتف، سارعتُ ورفعت السماعة، وقبل أن أتفوّه بحرف، جاءنا صوت جدّي يصرخ بما يشبه الفزع:

. احزمي أمرك فوراً وتعالي أنت والجميع إلى بيتنا.. إياكم البقاء في المنزل..

لم يترك لأحد منا فرصة للرد، فقد تابع يقول بصوت حازم:

. أنتم قريبون من "مطار المزّة" والخطر قريب منكم جدا، نحن هنا في منطقة "المهاجرين" أكثر أماناً وسلامة ، وأستطيع أن أطمئن عليكم ما دمتم قربي..

لكن أمي ردت عليه بهدوء:

. لا تقلق علينا يا والدي، سنكون بخير بإذن الله..

واستدركت متسائلة:

. نحن نستعد الآن للنزول إلى قبو العمارة، لكننا لا نعرف ما الذي يجري، وما الذي حدث، فهل تخبرني.؟

رد جدي بارتباك:

. لا أحد يعرف، حتى الآن على الأقل، ربما بداية حرب، أو غارة جويّة تنفّذها طائرات معادية على سوريا، بل وعلى دمشق بالتحديد..

صمت هنيهة ثم تابع:

. لا تجزعي، سنعرف قريباً عندما يصدر بيان من الحكومة، فالمذياع إلى جانبي وأنتظر إعلان الخبر بين لحظة وأخرى..

التقط أنفاسه وقال بحزم:

. اسمعي الكلام، وهاتفي زوجك كي يلحق بكم، وتعالوا فوراً..

ثم أغلق الهاتف يؤكد حزمه في إصدار الأمر إلى أمي..

صفارات الإنذار تواصل زعيقها، محذرة الناس لاتخاذ الحيطة والحذر والاستعداد لما يمكن أن يحدث بعد سماع صوت الانفجار الذي هزّ العاصمة..

نتزاحم جميعاً، نحن وسكان العمارة التي نقيم فيها على الدرج، والجميع يتراكضون للنزول إلى قبو العمارة لتوفير أمان أفضل لهم ولأبنائهم وأسرهم، الخوف والرعب يبدو على وجوه الجميع، كان الحدث مفاجئاً ومجهولاً مما سبب الهلع والدهشة، وشعرت بأن العمارة تهتزّ تحت وقع أقدام السكان على الدرج..

لم نفاجأ عندما رأينا "أم لؤي" تقف هادئة على باب شقتها المفتوح على الرغم من صخب الناس، وخوفهم، بادرتها أمي بالسؤال:

. ما هذا الذي يجري يا أم لؤي؟

أجابت ببرود:

. وهل غير "إسرائيل"..

وأردفت بسخرية:

. وما أدراك ما "إسرائيل..!

ردت والدتي لحسم الحوار:

. نسأل الله الستر..

أم فارس، وأم أنطوان لا تكفّان عن الحديث والثرثرة، يبدو أنه حديث سابق لم ينته، ويبدو أيضاً أن التواصل الهاتفي المستمر بينهما لم ينتهِ أيضاً..

الأطعمة المعلّبة الجاهزة للأكل أمامهن، وفي أيديهن، وهي كثيرة، بينهما في كيس بلاستيكي، خضار وفواكه، وكأنهما ذاهبتان إلى نزهة..

نحن في شهر رمضان، شهر الصيام، أدركت سريعاً أن كل ما يحملنه هو تحضير لإطعام الأطفال والأولاد الصغار، وكنا جميعاً على يقين بأن أم أنطوان تحترم شهر الصيام ومشاعرنا، ولا تتناول أي طعام أو شراب وهي بيننا، وكنت دائماً، كما أمي، وكما الجميع، نقدّر مشاعرها الطيبة هذه التي جعلتها محبوبة ومحترمة..

وسط هذا الهرج والمرج، قفز سؤال على لساني فصرخت:

. ماما أين أنطوان؟

أجابتني أمي، وهي تنظر إليّ بحزم:

. أنطوان لم يأت إلى هذا العالم بعد.!

. هل يعني أنه مات..؟

ردت علي مشدّدة على كلماتها:

. أم أنطوان لقب فقط، وأم أنطوان لم تنجب حتى الآن..

قلت باستسلام:

. يا سبحان الله..

ولمحت في الوقت نفسه نظرات فادي المواربة، وفهمت أنه يطلب مني التنحي جانباً لفسحة من حديث بيننا، تسللت بهدوء، أحاول أن أبدو وكأنني أستجيب لأحد يقف أمام باب شقة أم لؤي المفتوح كما العادة، وهي تتعمد طرح دعوة لمن يشاء من الجيران دخول بيتها، همس فادي في أذني قائلا:

. هل تخافين من إسرائيل؟

قلت وأنا أتصنّع شجاعة:

. لا.. لا أخاف..

واستدركتُ:

. ومم الخوف..!

قال:

. إذن تعالي نذهب، نبتعد عن هذا الزحام..

قلت باستغراب:

. وهل تعتقد أن أهلنا يمكن أن يسمحوا لنا الابتعاد في هذا الوقت العصيب، ونحن صغار.؟

أجابني بعصبية:

. وهل نحن صغار فعلاً.؟ وأردف مستهزئاً:

. كيف.. ونحن على وشك أن ننهي مرحلة الدراسة الابتدائية..!

. نعم هذا صحيح، ولكن ممكن أن أطرح عليك سؤالاً.؟

. بالتأكيد، تفضلي

قلت وأنا أستعيد صورة قديمة:

. ولو أن الأمر مضى وانقضى، وأرجو أن تسامحني لأن الأمر يتعلّق بفارس، وقد يؤلمك ذلك..

. لا عليك، أنت تعلمي أنني لا أستطيع أن أنساه، ويبدو أنني لن أنساه أبداً..

قلت بإصرار:

. ولكن الأمر يتعلّق بي..

. يتعلق بك.؟ وما دخلك أنت.؟

. لقد كان والدي يحذرني من الاقتراب من فارس، ولا بد أنك تعلم السبب، فأرجوك أن تقول لي لماذا.؟

. هل تراك تناسيت ذلك اليوم.؟ يوم أن تشاجرتِ مع شقيقتي "أسما"، يومها، أسرع فارس إلى والدتي ليتهمك بأنك دفعتيها فوقعت وشجّ رأسها..

أردف باستهزاء:

. ودفعت أنت ثمن اتهامه تأنيباً مريراً من أمي..

واستدرك جادّاً:

. كان ماكراً، وكان يحب الاقتراب واللعب مع الفتيات، كان مشاكسا معانداً، لا يهدأ حتى يجد حرباً اشتعلت بين أولاد العمارة.. وقد يمتد ذلك إلى مشاجرات مع الأهالي، كان مترفّعا بشكل غريب، وكأنه امتلك سرّ العمارة كلها..

قلت بدهشة:

. مع الفتيات البنات؟

أجاب والحزن يبدو على محياه:

. يكفي هذا يا أصيلة، أرجوك لا تثيري مواجعي، عليك أن تفهمي أنني لست كفارس، ثقي بي..

وأردف بعصبية مستدركا:

. هل فهمتِ؟

– نعم فهمت جيداً وأنا آسفة..

بدا لي أنه يحاول طيّ الحديث عن فارس، ولست أدري إن كنت فهمت سر شعوره بالإحباط الخفي من سلوك أخيه الذي لن يعود أبداً، وكأنه سيتحوّل ماسحاً لسيرته، منقحا لها إذ قال:

. انظري إلى السماء، ما هذا الذي يهبط من السماء..؟

ثم صرخ بفرح:

. يبدو أنه طيّار "إسرائيلي" يهبط بالمظلّة..

التفت إلى الناس داخل بيت أم لؤي وصرخ وهو يصفّق:

. لقد تمكّن طيارونا الشجعان من إسقاط طائرة إسرائيلية.. صفقوا معي تحيّة للأبطال..

ابتسمت أم هشام وأم مثنى ابتسامة المنتصر وصفق الأولاد ببراءة ونشوة بقوة احمرت لها الأيدي... والدتي تناديني لتطمئن أني قريبة منها، كانت تؤنبني في الوقت نفسه بنظراتها الحادة كالعادة ..

توقفت ثرثرة النسوة عند عصر ذلك اليوم،فثرثرة النساء وأحاديثهم العابرة لا معنى لها، فلانة تزوّجت، وأخرى طلّقت، وتلك راحت، وهذه جاءت، حديث لا يتوقف، ولا أجد رغبة في الاستماع إليه أصلا، وقد حان الوقت، بعد أن هدأت الأصوات، أن نعود إلى شقتنا، ولكن الحذر كان هاجسنا جميعاً، وكذلك الاستعداد لأحداث يمكن أن تحدث مجدداً..

وكان على والدتي أن تنشط في إعداد حقيبة طوارئ، تضع فيها أهم ما يمكن أن نحتاج إليه في حال سماع صفارات الإنذار من جديد، وفي حال نزولنا إلى قبو العمارة..

جديّ يعاود الاتصال هاتفياً، ويلحّ علينا، بعد أن قام بالاتصال بجميع أولاده وعائلاتهم يطلب منا أن نغادر بيوتنا، ويستقبلنا في بيته، مصرّاً على أن بيته يوفر للجميع أماناً أفضل..

وكان علينا أن نلبي ونطيع أوامر جدي، حملنا متاعنا الضروري القليل، ووقفنا ننتظر مرور سيارة أجرة تقلّنا إلى بيت جدي، رأيت في اللحظة نفسها، تلك السيدة الأنيقة برأيي الخاص أناقة خاصة، والتي أرتاح إلى رؤيتها كثيراً، وأجدها سيدة رصينة وهادئة وواثقة الخطوات، تلفّ رأسها بشال أنيق أبيض، مطرّزة الحواف بتطريز يدوي بسيط ولافت، وثوب ريفيّ نظيف، يزيدها أناقة على أناقة، ويعبّر عن أنوثتها، وعن تمسّكها بالأصالة، وبقيم المجتمع الذي تعيش فيه..

أرى أن الأناقة برأيي الخاص ليس أن نرتدي ما كان يصمم لنا في المحال التجارية, بل ما نراه مناسبا لفكرنا وقيمنا وتشكيلنا الإلهي العام، فهل غابت عن معظم الناس تلك الفكرة الرائعة؟

يا الله.. إنها "أم زكي".. نعم هي أم زكي، ولكن ما الذي جاء بها إلى المدينة.؟ وأعرف أنها قيّمة ومشرفة على مسجد في قرية " مضايا[2]" في ريف مدينة دمشق..!

اقتربت منها، ولم أنتبه إلى دهشة والدتي من تصرّفي هذا، بل مضيت أسأل أم زكي بود:

. أهلا بك يا حاجة في مدينتنا.. هل أنت مقيمة هنا؟

وقبل أن أنتظر ردا، تابعتُ أقول:

. لقد باركتِ الحيّ بحضورك، أما دعواتك فهي في قلوبنا برداً وسلاماً دائما.

أجابت بهدوء:

. أهلا بك يا ابنتي.. الله يرضى عليكِ.

وتابعت بحزن:

. تصوري لقد اتهموني ظلما وافتراءً بممارسة الشعوذة والسحر، وأنني أتصرّف بأموال الصدقات، وكل ذلك من أجل أن يأتي بعدي من يستلم أموال الصدقات، ويتصرّف بها..

[2] مسجد في طرف دمشق الريفي وهي منطقة سياحية تسمى مضايا وهي سوق تجاري في الدرجة الاولى

هزّت رأسها بألم وقالت مستسلمة:

. كيد وحسد وافتراء، الأمر لله فماذا نقول بعد ذلك..؟ حسبنا الله ونعم الوكيل, أمثال هؤلاء يتكاثرون كالجراد، ويتساقطون على الزاد الحرام القليل، ولا يفطنون عواقب أكل المال الحرام..

تابعت متفائلة:

. كانت الرائدات بالحضور الدائم إلى المسجد يكرمنني محبة منهن لا طلباً مني، فالأرزاق على الله وحده يا ابنتي.

وقبل أن تغادر قالت بمحبة بادية:

. أنا مقيمة الآن في منزل ابني، إذا أردت أي شيء فأنا هناك، في حي الشعلان حبوبي ثاني البناء رقم 2 اسألي عن أم فراس فقط[3]، وستجديني..

نادتني والدتي وهي غاضبة، وقالت بنزق:

. مذ كنت صغيرة، وأنت تتطفلين على خصوصيات الناس، حتى عندما نكون في أمكنة عامّة، تتجولين بين الناس، وتتسقطين أخبارهم، تلملمين قصصهم، وتتعرفين على حالهم.. يااااه.. متى ستكبرين وتكفي عن هذا السخف؟

ثم أتبعت ذلك بما تردده دائماً:

. يبدو أن نهايتك ستكون وخيمة لو عرف أبوك بما تفعلين.. لن يرحمك من العقاب أبداً.

أخفضت رأسي بخجل وهمستُ بصوت خفيض وأنا اعلم أنني لم ولن أكف عن هذا الفضول المتأصل في نفسي :

. أنا آسفة...

سكتت أمي، لكن الغيظ كان يبدو على محياها بقوة..

بعد قليل أقلّتنا سيارة أجرة مهترئة، أذكر أنها كانت من نوع "أسكونا الإيطالية" حمراء اللون، ذات السقف الأسود الجلدي، كانت السيارة الوحيدة التي أقبلت إلينا بعد طول انتظار، بينما أخي الصغير لا يكف عن التأفف، وطلبات سخيفة ليس لها معنى..

اكتمل الجمع في بيت الجدّ، وكانت أسرتي آخر الوافدين، يعرف الجميع أن والدتي تتأخر دوما عن كل مواعيدها، وقد تعودت والدتي على تعليقات الجميع المرحة البريئة لسلوكها الخاص هذا..

تقول خالتي الغالية، وكانت الأخت الأكبر بين إخوتها وأخواتها:

. كالعادة يا أم محمد.. كالعادة.

[3] حي الشعلان حي مشهور في دمشق وهو حي تجاري هام

تجيب أم محمد بتشفٍّ:

. المهم أنني أتيت، فلا تزيدين الطين بلّة أختي..

ثم أردفت:

. كالعادة فإن أصيلة تربكني بفضولها القاتل دائماً.. أعان الله من سيتزوجها.. ستكون حملا ثقيلاً عليه..

ردت أصيلة بضيق:

. أمي...

. إنني أداعبك فقط يا أصيلة، لكن آمل أن لا تكرريها عديني...

أجبت باستسلام :

. حاضر

لكن الغمز واللمز لم يتوقف من الجميع، وعلى الرغم من الصمت السائد، كنت أشعر بغيظ، وأصرّ بيني وبين نفسي على أنني راضية عن نفسي وسلوكي وعنادي..

. . .

ذكريات، وذكريات...

ما زالت صورة ابتسامة أم فارس الصفراوية مرسومة في ذهني تماما، فقد كانت الوحيدة التي لم تفرح مثلنا بالانتصار في تشرين، ذلك الانتصار الذي حققته قواتنا المسلحة بالتلاحم مع الشعب لتخطي فترة الإحباط والشعور بالمهانة، وقد حقق الانتصار دفع طاقة من إرادة قوية في نفوس الجميع، وحطم جنودنا غطرسة العدو، وهزموا أسطورة الجيش الذي لا يهزم، والذي جعلنا جميعاً نشعر بالكبرياء والقوّة والإرادة.

وأذكر، كم كانت والدتي تؤكد على غرابة طباع أم فارس بين الجيران، وبخاصة أن خالها "اليهودي" كان يعمل مع الجيش الإسرائيلي، وكان يزورها مرة في السنة.! .

كان فارس كما تزعم جارتنا، من المعجبين بخاله، وبطباعه الزكية على زعمها، مما ولّد آثاراً واضحة في سلوكه وشخصيته...

كان هذا الأمر، وهذه المعلومة، غريبة على فهمي وقتها، حيث لم أجد لها تفسيراً واضح الأبعاد تماماً، قد يكون هناك أمر لم أفهمه فعلاً من خلال تلك القناة تحديداً..

هكذا أسرّت جارتنا أم لؤي لوالدتي، مما ولّد لدي شعور غريب جدا، وتساؤلات لم أجد لها إجابات مقنعة!!.

غرفة الجلوس في دار جدي، دافئة جداً، مفروشة فرشاً يبدو أثرياً وجميلاً، كنبة مستطيلة كبيرة تحتل ركنا في الغرفة، مغطاة بقماش من الكريتون رائع الألوان، حوافه مطرّزة برسومات مشرشبة، ستائر داكنة لونها سكريّ زاخر برسومات بسيطة وجميلة، وكراسي وطاولات موشاة بالموزاييك، تتناسب بالمشهد مع لون الجدران النظيف الفضيّ..

كل شيء في غرفة جدي كان هادئا وجميلا، وكنت على يقين من أن لمسات خالتي على كل شيء من الأثاث تضيف إلى جمال المكان مشاعر أنثى رقيقة وعلى ذوق رفيع..

خالتي التي استطاعت أن تملأ فراغ غياب والدتها عن الحياة، وتحمل مسؤولية والدها والبيت دون تأفف، ودون تعب أو كلل، فقد قامت هي نفسها بتربية الصغار بكل حب ومودة، وخاطت لهم وغزلت الكثير الكثير حتى لأولاد أخواتها وأخوتها..

. تعالي إلى السقيفة فلدي كتب هامة سوف أتخلص منها، وأعرف رغبتك في مثل هذه الكتب الدينية فآثرت أن أسألك لو تحتاجين إليها قبل أن أتلفها وأتخلّص منها..

نظرتُ إليه بدهشة، وقلت بهدوء:

. حسناً..

لكن الخالة نهرتني بعنف وقالت:

– لا تذهبي مع خالك هذا..

واتبعت تعنيفها تقول:

. وما دخلك أنت بأمور كهذه.؟ هو يريد التخلّص من الكتب التي لديه.!

ثم أخفضت صوتها وقالت بما يشبه الهمس:

. يبدو أن عليّ أنا أن أتخلّص من هذه الكتب القديمة الصفراء، فلا طعم ولا رائحة لها، فقد ذهب بريقها وطعمها منذ زمن طويل.

قلت ببراءة:

. لا عليك خالتي، سأطّلع عليها فقط...

قاطعتني:

. لا لن تذهبي، بل من الأفضل أن تواصلي تعلّم "الغرزة" الجديدة في شغل كنزة الصوف

. لكنني يا خالتي لن أتأخر

المنزل في حي المهاجرين بدمشق، في الجادة الثالثة، وسقيفته المفتوحة على المطبخ، نشمّ منها روائح الطبخ الزكية، والمئونة بمختلف أنواعها...

. لا ليست هذه السقيفة، هناك في الثانية..

صعدت معه السلم الأثري المركون في منزلهم، ووجدت تلك السقيفة رحبة واسعة، شبه غرفة بتمامها وكمالها وسقفها وجدرانها، لكنها كالغرف المنسيّة، تعجّ بمختلف صنوف الكتب..

قلت وأنا أنظر إلى كومة الكتب:

. يا الله ما أجمل الكتب، وما أشهى منظرها..

لكنه فجأة، أمسك يدي وشدني إلى داخل السقيفة المعتم، وقال بما يشبه الهمس:.

. تعالي معي.. هناك تجدين الكتب التي أرغب أن تشاهديها..

نفرتُ من حركته المفاجئة، وتمتمت بغيظ:

. كفى.. لا لم يعجبني شيء من كل هذا..

ثم بحركة مفاجئة، نزلت على السلم وأنا حائرة أستغرب تصرّفه الغريب هذا.

خالاتي مشغولات بالحديث، وكل أحاديثهن لا تخرج عن نطاق المطبخ والطبخ، وعن فلانة وعلانة، ومن جاء ومن ذهب، في الوقت الذي كان فيه خالي يجمع ما يشاء من الكتب، ربما وجد أنها تناسبني وترضي ذائقتي، وقدمها لي بكيس أنيق ونظرة غريبة كأنه يقول لي:

. هي لك خذيها..

أحسست بالحرج، وشعرت أن وجهي يمتقع، وأحاول بكل قوتي أن أداري انزعاجي وحيرتي من تصرفه السمج الذي لم أجد له معنى ولا تفسيرا..

لكنني تناولت كيس الكتب من يده، موحية له بأنني قبلتها، وفي الوقت نفسه، وضعت الكيس وراء باب غرفة الجلوس مصممة أن أتركه في مكانه وأمضي دونه.

عاد جدي من المسجد في عصر ذلك اليوم، كان الطعام جاهزاً ومهيأ بأصنافه الشهية المتعددة على الطاولة، وقد لفت انتباهي أناقة الأدوات التي تحتوي الطعام، زجاجية وفخارية ومن الصيني والشيني، وهي أوعية ثمينة وذات جمال أخّاذ، وأعجبني أن أجد على الطاولة، صحن مليء بالفلافل، وصحن كبير من زلابية البطاطا التي أحبها وأشتهيها في كل وقت، وأدركت أن كل الأصناف الشهية أمامي على الطاولة هي من صنع البيت.

. علميني كيف أصنع الزلابية يا خالة.؟

اهتمت خالتي بسؤالي وقالت:

. أحضري ورقة وقلماً إذن..

لم أكن أحمل ورقا ولا قلماً، ولما أدركت خالتي حيرتي قالت تنقذني:

. حسناً دعي الأمر لمناسبة أخرى..

واستدركت:

. ولكن إياك أن تقولي لأحد عن مشروعنا هذا، فأنا لن أستطيع أن أعلّم الجميع.

أطرقت بخجل، ورددت:

. حسناً يا خالة.. كما تشائين.

حلّ الليل، وكان ليلا مميزاً ملأني بسعادة، ربما لأنني كنت في مكان أحب أن أكون فيه.؟ أو بالناس حولي، وأحبهم وأحترمهم، وأجد فيهم نبع معارف، وخبرة، وكثير من الحب والأصالة، تصوّرت أن قدوم الليل، كهالة من جمال، كأنه يحمل بين يديه شموعاً مضيئة، وإطلالة جدي ترحب بنا، ويصرّ على بقائنا في بيته في ظلّ وضع أمني صعب ودقيق وسط مجريات أحداث 1973 والحرب المشرعة بيننا وبين الصهاينة، ونتابع عطاء الأبطال الذين يسطرون سفراً جديدا في مسيرة نضالنا وتصدينا لهذا العدو السرطاني.

نتابع من الأخبار التي تتوالى من المذياع بين وقت ووقت، ومن البيانات التي تصدرها قواتنا المسلحة تتحدث عما يجري، وتطورات ما يجري، ونحن مسترخون جميعاً على أرائك مريحة، في بيت

جدي الفسيح الهادئ، نستمع بكثير من السرور والسعادة لتلك الانتصارات التي يحققها جيشنا وشعبنا لصدّ هجمة العدو، وتحرير أراضينا المحتلّة، ونترحّم على شهدائنا الأبطال الذين يدفعون بدمائهم ضريبة حياة كريمة لنا ولأجيالنا..

قصص وحكايات ومشاهد وأخبار تثلج الصدر، تروي عن عظمة شعبنا وجيشنا، وهذا التلاحم القومي الذي جمع بين كل البلاد العربية على ساحة الشرف أخوة ونصراء وباذلين وشهداء، ليحققوا لهذه الأمّة العزّة والانتصار..

أسطورة كاذبة، وتضخيم ليس له معنى ذلك الذي نشاهده ونتابعه، ونرى بالعيون المجردة كيف يتمثّل الذعر الحقيقي بين جنود المحتلين المعتدين، وكيف يهربون من أمام رجالنا بجبن وخذلان، وكيف تتهاوى أسطورة الجيش الذي لا يهزم..

وكنا، في كثير من الأوقات، نصعد والجيران من نساء وأطفال إلى سطوح بيوتنا دون خوف، متجاهلين إتباع تعليمات الجهات المختصّة الحريصة على حياتنا وأماننا، لكن الحماسة كانت تملؤنا، فلا نبالي بأي خطر يمكن أن نتعرّض له، نصعد للسطوح، لنشاهد تهاوي طائرات العدو، وسقوط طياريهم بأيدي قواتنا..

ومهما بذلت من جهد في وصف مشاعرنا، لن أستطيع أن أكون دقيقة أبدا، فمشاعرنا كانت في أوج السعادة والشعور بالفخر والاعتزاز، رأيت في وجوه الأبطال صورة رجالاتنا العظماء الذين حققوا الاستقلال والخلاص من الاستعمار الفرنسي، رأيت صورة إبراهيم هنانو، وسلطان الأطرش، وصالح العلي، وآلاف الشهداء الأبطال يتقدمون الصفوف ويكسرون شوكة العدو، ويصنعون الانتصار..

فجأة، ونحن مسترخون على الأرائك في بيت جدي، سمعنا طرقات على باب البيت، وكأنني أحسست بنسائم طيبة تتخلل الغرفة، وتداعب شعلات الشموع، وقبل أن يتحرك أحدنا من مكانه، دخل خالي الأكبر، يحمل بندقية كبيرة، وتبدو على ملابسه بقع طين وتراب.

ركن البندقية اللامعة، بعد أن أفرغ ما فيها من رصاص على الكرسي الكبير، وجلس بيننا ورائحة البارود تفوح منه، وحماسه منقطع النظير وكأننا كنا على موعد، ليذخّر بنادق أرواحنا بالمسك والعنبر بما راح يروي لنا من قصص وأحداث عاش تفاصيلها وشارك فيها.

بدأ بسرد قصص على مسامعنا المتوثبة عما رأى وسمع وشارك، كان يتحدث، وكأنه يمسك بمدفع رشاش ويطلق منه كلمات حارّة وصادقة ومؤثّرة..

حدثنا عمن قضوا شهداء من رفاقه وأصدقائه وهم في قلب المعارك، عن الجرحى، ومشهد الدماء والإصابات والنزف، عن التضحيات التي بذلها الرفاق في إسعاف المصابين ونقلهم إلى الصفوف

الخلفية.. يحدثنا، وتقفز من عينيه إشارات تدلّ مع كل كلمة يقولها على حبّه للوطن، واستعداده للفداء من أجل حرية ورفعة الوطن، وكان يعبّر أيضاً على أنه ليس الوحيد الذي يحمل هذه المشاعر، بل كل الذين هبّوا لنصرة الوطن، وهم على يقين بأن الوطن بحاجة إلى رجاله في وقت يتعرّض فيه للغزو والاحتلال، وإن الدفاع عن الوطن رسالة نبيلة وشرف لا يضاهيه شرف..

بقاؤهم على قيد الحياة، وهم في قلب المعركة آخر ما يفكرون به، وكأن حياتهم في موقف نبيل كهذا لا تزن جناح بعوضة أمام رغبة الانتصار أو نيل الشهادة، فهم بحق "أكرم من في الدنيا، وأنبل بني البشر".. خلّفوا وراءهم أسرهم، أمهاتهم وزوجاتهم وأبنائهم، وهبوا تلبية لنداء الواجب ونداء الوطن.

حدثنا خالي طويلاً عن بطولات الباذلين من جهة، وعن جبن وخوف وذعر الأعداء الصهاينة من جهة أخرى، وحدثنا عن ذلك الجندي الصهيوني الذي واجه في مكان قصيّ بعيدا عن ساحة المعركة جنديّ عراقي وجرى بينهما حوار بدا عجيباً غريباً لكنه عبّر بما لا يقبل الشك عن هشاشة الكيان الصهيوني، وعن عقم المعتقد الذي يؤمنون به، وفي يقينهم أنهم غزاة يغتصبون بلاداً ليست لهم، ويدركون أنهم زائلون، وأن الجندي الصهيوني الذي يقاتل إلى جانب الجيش الإسرائيلي يجعل في مقام رغائبه المكاسب المادية التي يمكن أن يحققها، وليس من منطلق إيمانه بقضية تفرض عليه أن يضحي من أجلها، بينما نجد في الجانب الآخر، أولئك الأبطال الذين يتسارعون لطلب الجهاد والتصدي والقتال من أجل قضية كبيرة ونبيلة ومحقة..

وهل أكثر من الدفاع عن الوطن والأصل والدين قضية نبيلة..؟

ثم، وهما في قلب حوار غير متكافئ، تتقدم دبابة صهيونية، وتطلق حممها لينال ذلك الجندي العربي العراقي الشهادة.

لقد روى لنا كثيرا وكثيرا جدا، عن الكم الهائل من مخزون الروح الوطنية التي نمت وترعرعت على سهول وجبال الوطن الحبيب، كان يذكر بالاسم والحرف كل من كانوا معه في قلب الحرب بدقة متناهية وكأنه يبكيهم، لكنه لم يكن يبكي، فهو مؤمن بقضاء الله، وبالجنة الموعودة للشهداء الأبرار.

اقترب من خالتي الأكبر، وسلّمها رسائل وأمانات لتوصلها بمعرفتها إلى أسر الذين لم يرجعوا أبدا..

فهل كان خالي يتوقع انه لن يعود هو الآخر.؟

. يا رب لا يا رب لا قدّر الله..

وسرعان ما دمعت عيناها عندما قال:

. أنا عائد إلى الجبهة غداً..

وأردف:

. ترافقني دعواتك..

بعد هذا المشهد، توقف الجميع عن الحديث، وطفا الصمت على أرجاء الغرفة، لكنهم وبفعل لا إرادي واصلوا تناول الطعام، فالأيدي تمتد إلى الأطباق ، وتمسحها، وتفتش عن صحون أخرى ما يزال فيها بعض طعام.

حب الحياة طبيعة بشرية، ولا شيء يقف في وجه القدر والمكتوب، لكن الجميع، في هذه الغرفة كانوا، وبعد أن أنصتوا إلى أحاديث خالي، يشعرون بالفخر والاعتزاز، وأن حياتهم، مع تحقيق الانتصار، أصبح لها مسار آخر، وطعم آخر أفضل بكثير من الشعور بالهوان..

حاولت، بدافع صبياني، أن ألمس بندقية خالي، وقبل أن تصل يدي إلى البندقية، انقض ابن خالتي "عامر" يمنعني، ويدفعني بقوة كي أبتعد عن البندقية، وهو يصرخ:

. أيتها المندفعة ما دخلك أنت ببندقية خالي؟

. أليس هو خالي أيضا؟

. هو خالك، لكنني أكبر منك سناً، فهو خالي قبل أن يكون خالك..

قلت بعنف:

. هي أيام فقط، فكلانا بعمر واحد

. ألم تسمعي بأن أكبر منك بيوم، أعرف منك بسنة.؟.

لكنني من منطلق عناد، قبضت بقوة على البندقية، وحاولت أن أبعدها عن غايته بانتزاعها مني، فأحسست بثقل وزنها، في اللحظة التي انتبه خالي "عدنان" إلى ما يجري بيني وبين عامر، فهب واقفاً وهو يصرخ بغضب:

. هل تعلمون لو انطلقت من البندقية رصاصة واحدة ماذا يحصل لي ولكم.؟

أجبنا بخجل:

. لا يا خالي لا نعرف ماذا سيحصل.!

. إذن دعوا البندقية وسأخبركم لاحقاً ماذا يمكن أن يحدث..

رددنا برجاء:

. بل الآن يا خالي قل لنا.. نرجوك..

قال وكأنه يؤنبنا:

. بفعلتكما هذه طيش وتسرّع، ولا تستحقان أبداً أي تفسير وحديث، قبل أن تهدآ وتسكنا.

فجأة.. ركض صوبنا طفل من أبناء خالي بيننا، فوقعت البندقية على الأرض، لتنطلق منها رصاصة أصابته مباشرة في كاحل قدمه..

يصرخ خالي بفزع:

. يا إلهي، كيف يحدث هذا وقد أفرغتها من الرصاص.؟

ساد هرج ومرج في البيت مع دويّ صوت انطلاق الرصاصة المرعب، وفي هذه الظروف المتوترة الصعبة، لا أعرف من هبّ يحمل الطفل المصاب لإسعافه، بينما حمل خالي البندقية بصمت، وغادر البيت كي يتدبّر أمر هذا الحدث..

داهمنا جميعاً شعور بالندم والخوف والقلق، وسط أحاديث بدأت هادئة وسرعان ما توتر الموقف وصار الجميع وكأنهم يتحاورون حواراً ليس له معنى ولا فائدة..

مازالت خالتي واجمة تردد بألم:

. كيف انطلقت من البندقية رصاصة، وقد شاهدناه جميعاً وقد أفرغها من الرصاص.؟

وتابعت:

. كان الله بعون أهالي الشهداء، يا رب سلّم الجميع..

ثم وكأنها تذكّرت أمراً جللا قالت:

. كيف سنطمئن عنه الآن.؟ حسبنا الله ونعم الوكيل..

انزوى الأطفال في ركن من الغرفة صامتين، وفشلت لعبة الحرب، لعبتهم المفضلة وهم يقلدون خالهم المغوار...

لم أفهم ماذا كان يعني جدي عندما أشار إلى خالتي التي هرعت إليه، تهمس في أذنه كلمات لم يسمعها ولم يفهمها أحد، لكننا شاهدنا جدي يناولها نقوداً تعفّفت عن أخذها منه، وغصّت محرجة لا تريد أن يلمح الموقف أحدا، لكنني شاهدت كل شيء جيداً.

على الرغم من أن العلاقات بين الجميع وديّة ورائعة في منزل جدي، إلا أن حواجز كثيرة في نفسي، كانت تقف حائلاً من أن اقتحم أسوارها..

قالت خالتي تنبهني:

. انتبهي هذا ابن خالتك لا يجوز أن تلعبي ولا أن تتضاحكي معه كثيراً، وهذا خالك الصغير مزاحه مزعج، فانتبهي أن لا تبتعدي عني في هذا الليل..

سكتت لحظات ثم قالت:

. جدك رجل كبير في السن لا يتحمل الأصوات العالية أبداً..

ثم ساد صمت عميق في أرجاء الغرفة، كأنها كهرباء ساكنة لا تصدر شررا، ولا مجال لتحريكها كما تهيأ لي إلا بتقديم الطلبات والإذن للاستفهام قبل أي تصرّف قد يكون عبثياً..

وعلى الرغم مما جرى، كان اجتماعنا في بيت جدي، وحول طاولة زاخرة بالأطباق الشهية من صنع بيتيّ ومحلي، لم تخلُ من قفشات مرحة كانت تبدد بعض ضباب وغبش في الرؤية نتيجة تلك الأحداث التي صاحبت تواجدنا في بيت جدي.. وأصبحتُ على يقين بأن لكل بيت هواؤه الخاص العليل، وأحاديثه التي تخصه وحده.

. . .

اكتمال الصورة

غاب عنا خالي في اليوم التالي، دون أن أعرف ماذا فعل، وكيف تصرّف بعد حادثة انطلاق الرصاصة من بندقيته، وبعد تلك السهرة التي أمضيناها في بيت جدي، بين طعام طيب، وحديث مرح، ثم توتر وقلق، ولا أعرف أين هو.

يبدو أن خالتي تعرف الكثير، لكنها كتومة، لم نستطع أن نفهم منها شيئاً، رغم إلحاحنا بالأسئلة، لكننا، ولأننا كنّا صغاراً، لم نقف طويلاً أمام تلك الحيرة، بل استغرقنا في اللعب، وقد أنهكنا تماما, ,والعبث في بيت الجد الكبير، والتنقل من غرفة إلى غرفة وكأننا خليّة نحل لا تتوقف عن الحركة والضجيج، وما أن أخذنا أماكننا في فراش مُدّ لنا خصيصاً، حتى استغرقنا جميعا في نوم عميق.

ما أذكره تماما , أن ابن خالي المصاب حصل على دلال منقطع النظير من جراء ما حدث له حينها...

وقد كان من الطبيعي جدا, أن نستيقظ متأخرين وكأننا في يوم عطلة، كان يوما بنكهة مختلفة، ولذيذة معا..

غرف البيت وزّعت علينا على جدول يجمع كل عائلة معاً، الخالات والأخوال، بينهم جيل آخر يتصنع الخصوصية في كل شيء، وخصوصية الأحاديث وكلّ يتحدث عن أحداث جرت أو إنها تجري، وكأنه المتفهم الوحيد لأحداث الحرب، ورغم هذا كان أخوالي الكبار، يلعبون الشطرنج تارة أثناء حديثهم، وتارة أخرى النرد، تتخللها أحاديث جانبية شتى تجعلني أنصت السمع كثيرا بفضول حارق ورائع معا,بحيث لو حاولت التفوه برأيي الخاص، نهرني أبي واضعاً يده على فمه بإيماءة سريعة، يحسم الأمر، فأسكت لكنه يتمتم:

. هذه أحاديث الكبار، أنت تنصتي فقط، وتفهمي.!

كانت العطلة التي قررتها وزارة التربية منجاة لي من تقاعسي في مذاكرة دروسي، وحفظ واجباتي المدرسية، والتي كانت محببة بالنسبة لي، وفي الأحوال العادية، أطالع الدروس دون التزام مدرسي، حتى أن ثرثرتي في الحصص الدراسية جعلت المدرسات يكثرن من الملاحظات نحوي بشكل أصبح يشعرني بالخجل، ويبدو أنني استنفذت فرصي في العفو، وما زالت المدرسات لا يؤثرنني عن غيري ممن لم يحظين بوالدة مدرسّة مثلي، فيشدون وثاق التنبيه أكثر فأكثر.

دار البنين[4] تلك المدرسة التي على صغر حجمها نوعا ما، أعشق أدراجها، أعشق كل حجر فيها، لأنها أرّخت طفولتي الأثيرة، أبيتُ ذات يوم أن أبقى في بيت الفئران الذي كان عقابا قاسيا لكل مشاغب في الحصص الدراسية..

وذات يوم أفشيت سرّ طالبة كانت تكيل لمعلمتنا ألوان السباب والشتائم، كي تبقى معي في تلك الغرفة التي مللتها لتكرار العقاب فيها، وقد وجدتها أخيرا فرصة ملائمة لإكمال مذكراتي، التي، كما أعتقد، لن تنتهي أبدا، عندما فشلت محاولاتي في استمالة والدتي لتتعاطف معي، وتساعدني، بل وتستمع لمحفوظاتي، وتتنازل عن طلباتها لأساعدها في شؤون البيت، لكن ذلك كله باء بالفشل الذريع..

كانت أيام، لا أقول إنها غريبة، لكنني وأنا أستعرضها الآن، أراها وكأنها آتية من وراء ضباب، فيها نكهة طفولة بريئة، وفيها شقاوة لم نكن نقصدها، بل كانت تصرفات طفولية، أستعيد الذاكرة، فأشعر بكثير من الراحة والأمان..

أذكر ذات يوم من تلك الأيام الغابرة، وكنا خارج البيت في زيارة، وبعد عودتنا إلى منزلنا، فكرت دون أن أقدّر أي ردّ فعل أو مجازفة أو دخول دوائر ليست لي، فكّرت أن أقوم بزيارة بلا مناسبة إلى جارة والدتي "أم رامي" وهي سيدة مسنّة، أحمل لها في قلبي محبة كبيرة، وأشعر دائماً أنها تلك السيدة التي أتمنى أن أكونها عندما أتقدّم بالسن، وهذا الشعور كان دائماً وراء رغبتي بزيارتها، وكأنه فرض من فروض الفضول..

كان الوقت عصراً، وقد استسلم للقيلولة كل من في البيت، وبدا البيت وكأنه في هالة من ظلام مزيف، شعرت بالضيق، ومللت الهدوء المطبق هذا ، ومراعاة حركاتي وصوتي كي لا أزعج هناءة النائمين، تسللت خارج البيت بهدوء وكأنني أدخل في تجربة لصوصية حذرة، نزلت درج العمارة بهدوء.. وقفت لحظات أما باب بيت "أم رامي"، ثم قررت أن أطرق على الباب طرقات خفيفة، أحسست بنسمة رطبة تأتي من ورائي، وكأنها تسللت هي الأخرى دون أن يشعر بها أحد، ولامستني برقّة فتحت لها صدري بحب، في اللحظة التي فُتح فيها الباب أمامي:..

. أهلا بك عزيزتي..

تلفّتت حولي ثم أردفت بشيء من الاستغراب:

. ما الذي جاء بك وحدك.؟ وهل تعلم والدتك بقدومك.؟

أربكتني، لكنني تماسك وكأنني أتجاهل تعليقها وقلت:

---

[4] مدرسة دار البنين وهي مدرسة حكومية في حي العفيف بدمشق باتت مركزا ثقافيا عراقيا حاليا.

. لن أطيل مكوثي عندك، لكنه حلم تراءى لي وجاء بي إليك.!

نظرت إليّ بدهشة، وقالت:

. وأنا أيضاً رأيتك في حلمي هذه الليلة..

ثم فتحت عينيها دهشة وابتسمت ثم قالت:

. رأيتني أنا.؟ يا سبحان الله، تصوّري وأنا أيضاً تراءى لي حلم غريب..

قاطعتها:

. أريد منك، أن تفسري لي هذا الحلم إذا سمحت، فأنا أعلم براعتك وإلمامك بهذا الأمر.

نظرت نحوي تصطنع الهدوء والخشوع، ثم قالت وكأنها تحفظ عن ظهر قلب كل كلمة تنطق بها:

. قبل كل شيء اذكري اسم الله سبحانه، وصلِ على النبي المختار، ثم بعد ذلك قصّي علي رؤاك.

وأنا أباشر تنفيذ ما قالت، أومأت لها برأسي إشارة قبول..

نظرت حولي في أرجاء الردهة الرئيسة في بيت أم رامي، وهالني أنني رأيت خزانات كثيرة معلّقة على الجدران تغصّ بشتى أنواع الكتب، وأكثرها مجلدات تبدو وكأنها دينية، ولأن المكان كلّه كان يعجّ برائحة الكتب، لم أستطع أن أميّز بينها، وبين عناوينها المتعددة بدقة، لكنني ودون تفكير قلت بحماسة:

. أود لو أستعير كتباً من مكتبتك سيدتي..

. حتى يأتيني الإذن يا عزيزتي... حتى يأتي الإذن.!

قلت مستغربة:

. إذن.؟ ممن.؟

. إذن من الله..

ثم أردفت تحسم الحوار بيننا:

. أرجو أن تتناسي ملاحظتي هذه الآن ، فمن الصعب أن أشرح وأوضّح لك ماذا أعني..

وأردفت دون اكتراث:

. حسناً.. حدثيني عن الحلم الذي تراءى لك.؟

. لقد رأيت السلطان عبد الحميد...

فتحت عينيها بدهشة:

. ماذا تقولين.؟

وبعد أن استرجعت هدوءها قالت:

. يا سبحان الله، وألف الصلاة على النبي، ما الذي جاء به إليك؟

حركت رأسها وكأنها تستسلم لمشيئة غريبة وقالت:

. ربما توارد خواطر..؟!

. لست أدري، لكنني أريد تفسيراً للحلم أرجوك

. ليس الأمر بهذه السهولة، عليك أن تصفي لي بدقة كيف شاهدتيه.؟

أغمضت عيني أسترجع المشهد:

. نعم.. لقد جاءني بلباسه السلطاني، وهو يشير بيده إلى مكان ما لم أتبيّنه، يبدو كمنزل بعيد لا أعرف عنه شيئاً، أو كأنه يسعى ليطلب مني شيئاً.!

. هل هذه هي الرؤية فقط.؟

. نعم.. فقط.!

هدأت أسارير وجهها، وأمسكت يدي وقالت بحنان:

. سيأتي تفسير حلمك هذا في قابل الأيام، وعلى أرض واقع..

تَرَكت يدي واستدركت:

. أو دعينا ننتظر ونترقّب أن تأتيك رؤية، أو حلم آخر جديد..

فتحت عينيّ دهشة، وكأنني لم أفهم شيئاً مما قالت، وقد لاحظت دهشتي فأردفت تقول:

. لا شك في أن حلمك جميل وعزيز، وهو رسالة هامّة لك سوف تعرفين مدلولاتها في الوقت المناسب..

وكأنها قصدت أن تخرج من الموضوع إذ قالت بحزم:

. انتبهي لنصيحتي ولا تتحدثي كثيرا مع فادي ، والأفضل أن تتفادى الحوار معه قدر الإمكان

فاجأتني.. لكنني تمالكت وسألتها:

. فادي من جديد..؟ ولماذا تحذرونني من فادي على وجه الخصوص..

واستدركت بعد هنيهة صمت:

. بكل حال لا يعنيني أمر فادي، هو بحاله وأنا بحالي..

قالت بحنان:

. إنني أنبّهك ليس أكثر، وسأعطيك ما يفيدك في الوقت المناسب..

حاولت بدوري تغيير الموضوع الذي أزعجني حقاً، فأنا فعلا لا أهتم بفادي ، ولا يعنيني أمره على الإطلاق، قلت:

. حسنا يا خالة.. جزاك الله خيراً، بقي أن تحدثيني عن حلمك بي..!

. ليس الآن يا ابنتي، سيأتي الحديث عنه في وقته، انسي الأمر الآن مؤقتاً فلدي عمل كثير لهذا اليوم.

رن جرس منزل الحاجة هداية "أم رامي".!

قفزتُ من مقعدي..

أخي ينادديني بلهفة وفزع..

. أمي تناديك.. كيف خرجت من البيت دون أن تعلمي أحداً.؟

خرجت مسرعة من بيت أم رامي، وأنا أنظر للوراء، كأنني لم أرتو بعد من جلستها المليئة بالنصائح وتجارب الحياة...

هداية، اسم الحاجة أم رامي، وقد اكتشفته اليوم، وشكل في تكويني ما يشبه الرمز الكبير الوقور المليء بالأسرار الذي يثيرني جداً، كان رمزاً يحتوي على خصوصية مجهولة، لم أستطع حتى الآن فك رموزه أبداً.

في تلك الليلة، حلمت بأن السلطان عبد الحميد، جاءني..!

. . .

ذكريات مدرسة.

كانت مرحلة الدراسة الإعدادية مرحلة حساسة من حياتي، انتقلت فيها من مرحلة الطفولة إلى مرحلة جديدة، ومثيرة جداً.

في تلك المدرسة التي يحزنني أنها تغيرت بعد تخرجي منها، تغيرت مع تغيّر ملامح حياتي، تغيّرت بعد تغيري.. فقد غدت المدرسة بعد وقت قصير مستوصفاً حكومياً..

الاسم الذي رافق مسيرة دراستنا في المرحلة الإعدادية اسم غريب ومثير في آن.. أحمد العزاوي.[5]! نعرف أنه بطل من الأبطال الذين أرّخوا مرحلة من مراحل نضال شعبنا الأبيّ، لكننا، وللأسف لم نجد له سيرة حياة على جدران المدرسة المتواضعة المتهرئة، ولا في لوحة إعلانات المدرسة، ولا في بعض الكتب التي أطلعّنا عليها..

كل ما في الأمر أن مدرّسة التاريخ قالت إنه بطل، ضحى بحياته من أجل الوطن، بطل كما الأبطال الذين قدموا حياتهم فداء للوطن في مراحل متعددة، كما الأبطال الذين استشهدوا في السادس من أيار، والذين أعدموا في عكا، ولست أدري لمَ كنت دائماً أشبّهه بالبطل يوسف العظمة[6] الذي قدم حياته وروحه من أجل الوطن، هذا البطل الذي استشهد في مواجهة الجيش الفرنسي، الذي قدم لاحتلال سوريا حيث كان وزير الدفاع للحكومة العربية في سوريا بقيادة الملك فيصل الأول. هو يوسف بن إبراهيم بن عبد الرحمن آل العظَمة الدمشقي التركماني.

عندما اقترب الفرنسيون من دمشق بقيادة غورو 1920 م، وفي تلك المعركة التي برز فيها حوالي ثلاثة آلاف من الجنود المتطوعين السوريين بأسلحة قديمة، في مواجهة تسعة آلاف ضابط وجندي فرنسي، مسلحين بالدبابات والسيارات والمصفحات والطائرات وأحدث الأسلحة الأخرى، وقد استُشهد مع البطل يوسف العظمة أربعمائة مقاتل سوري بطل.

---

[5] المدرسة الآن في جادة المهدي بن بركة في حي أبو رمانة ، وهي الآن مستوصف حكومي

[6] كان متديناً متمسكاً بإسلامه، مؤدياً لصلاته، وصائماً أيام الصوم، ومحافظاً على شعائر الإسلام. وكان يتكلم العربية والتركية والفرنسية والألمانية. ولما وضعت الحرب أوزارها عاد إلى دمشق، فاختاره الأمير فيصل قبل ان يصبح ملكا مرافقاً له، ثم عينه معتمداً عربياً في بيروت. فرئيساً لأركان الحرب العامة برتبة قائم مقام، في سوريا. ثم ولي وزارة الحربية سنة 1920 بعد إعلان تمليك الأمير فيصل بدمشق، فنظم جيشاً وطنياً يناهز عدده عشرة آلاف جندي. ينتمي إلى عائلة دمشقية عريقة ترجع إلى جدهم الأعلى حسن بك التركماني. ولد في حي الشاغور بدمشق عام 1884م الموافق 1301هـ، و ترعرع و تلقى تعليمه الأولي في دمشق، وأكمل دروسه في المدرسة الحربية في إستانبول وتخرج منها ضابطاً عام 1324هـ الموافق 1903م. وتنقّل في الأعمال العسكرية بين دمشق ولبنان والآستانة.

.

لقد جعلتني تلك المعركة، أتوقف طويلاً أمام سيرة البطل يوسف العظمة، فقد كان على يقين بعدم تكافؤ القوى في المعركة، لكن هذا لم يدعه يفتح الباب لدخول المعتدي محتلاً للبلاد، وهل يمكن أن يسجل التاريخ دخول قوات أجنبية إلى سورية بسهولة ودون مواجهات.؟ وهل يمكن لأحد أن يسطّر للأجيال مخاز تكفي مئونةً لزمنٍ غادر نقف أمامه مشدوهين كالبلهاء!

لقد كان الأمر على تلك الصورة أمراً كبيراً وخطيراً جداً...

كان هذا يكفي كي يسطر الأبطال الذين خرجوا للتصدي لجيلٍ بعد جيل، أملا حيّاً ودائماً يقول: إننا لن نستسلم أبداً، ولن نترك راية النضال، والمجد والعزة والإخلاص.

لقد كان هناك خيط دام رفيع جداً، ومختلف جداً.. يصل بينها وبين غزوة أُحد بشكل ما..وبينها وبين زمن آت بالتأكيد...

كان لي رفيقة في المدرسة اسمها ساجدة، تلك المشاغبة بامتياز، كانت متوثبة ذكاء وفطنة.. ومكراً، ما زلت لا أعرف السر وراء تصميمها على مشاكستي وبشكل مقصود.! تستفزني بشكل عجيب...و تقف أمام صديقاتي بتصميم كي تجلبهم إلى صفّها وتغريهم بصداقتها، تخطفهم خطفاً مني! بطريقة مدهشة عجيبة، كانت بداية مشاكستها لي عندما امتنعت عن تمرير فكرة لها ، وأغششها بالامتحان، وتطوّرت الخلافات بيننا إلى التشابك بالأيدي في بعض الأوقات، وشد الشعر، وفي كل يوم تطوّر جديد بيننا إلى الأسوأ، مما استدعى تدخّل الأهل، ونصائح وتنبيهات وتهديدات، لكنهم على الرغم من ذلك كله، لم يجدوا حلا لتلك العراكات المزعجة.

وفي تلك المرحلة بت أعرف الكثير عن فادي، وإخلاصه للكنيسة الأرثوذوكسية التي كانت في حيّ أبي رمّانة، وما لفت نظري أثناء حواري معه ذات مرة، أخبرني بلهفة عن تنصّر جاره سامر من خلال علاقة والدة سامر الوثيقة بوالدته، ومن ثم عزمهم على السفر إلى كندا في أقرب وقت ممكن، وقد لاحظ حماسته وفرحته بتسريب هذا الخبر ونقله إلي وكأنه حقق انتصارا فريداً، لكنه انتبه فجأة لجمودي ومفاجأتي، فخفف من لهجته الفرحة ليعود إلى هدوئه المصطنع قائلا لي بلهجة متراخية جداً:

. قد ألبي فضولك وأجعلك تزورين الكنيسة.. ما رأيك؟

أحسست بقلبي يخفق بشدة حتى كاد يتوقف من هول المفاجأة..

كيف سأفعل؟! لكنني قلت في سري:

. نعم ولم لا، هي دقيقة لن تزيد ولن تنقص..

وعندما هممت بالمضي معه, خانتني قدمي والتوت تحتي فجأة مما اضطرني هذا الأمر للعودة إلى البيت سريعاً من فرط الألم.. دون أن أحظى بفرصة زيارة الكنيسة..

كان عليّ في هذا الوقت بالذات أن أعدّ أسئلة كثيرة لأطرحها على الحاجة هداية.

. . .

نقلة نوعية

اقترب موعد امتحانات المرحلة الإعدادية التي كانت توحي بكثير من الأحلام الوردية عبر نقلة نوعية نحو الدراسة الثانوية، لتشكل اثنتا عشرة سنة دراسية كاملة ستمر بكامل منغصاتها وغصصها، ومتعتها ومتاعها، بات ما فاتني من تراكم دراسي، محط اهتمام ودافع لمراجعة وترميم ما أُهمل وأُجل.
لم يخطر في بالي في أي يوم من الأيام أن أتلصص على وريقات صديقاتي في الامتحانات كي أغشّ، أو أنقل ما يكتبن على خلفية استهتاري، لكنني يبدو أنني سأفعلها الآن وأنا في وسط ورطة وعدم امتلاك أجوبة للأسئلة التي أمامي، أعرف أن المادة صعبة، ولا أحبها، كنت أحاول أن أفهم وأدرس، ولكن وأنا أسعى إلى ذلك تأخذني مشاهد أخرى، أتابع وأراقب شرفات العمارات حولنا تغصّ بالدارسين والدارسات والفصل صيف قائظ، كثرت الحشرات الطائرة والقارصة، بعوض وذباب وفراشات، وتلك المادة الاجتماعية الأخيرة بين يدي تتبخّر من ذاكرتي كلما حاولت تثبيتها، بعد أن تصوّر لي أنني شحذتها طوال تلك الفترة بكل أنواع الغذاء والمثابرة والمحاولة، وجعلتها الآن في تشوف حقيقي لإنهاء هذا المطب الساخن.
دفعني هذا الأمر المزعج أن أتسوّل القليل من المعلومات من صديقتي التي سبقتها إلى خارج الصف، وسط إيماءات عابرة كانت كافية لتذكيرها بأمري.. كنت أعلم جيداً رغم هذا أنني أخون ذاكرتي.. وكان يجب أن أجد سبيلا آخر أكثر مضاء ومفعولا واستقامة..
ودون أن أدري أو أخطط أو أفكر، اندفعت لسؤال فادي بعد عودتي إذا كان قد أبلى جيدا في امتحانه في هذه السنة، فهو في تلك المرحلة، مثلي تماما.. تمنيت لو شاهدته، دون سبب، ولست أدري أصلاً كيف خطر على بالي هذا الخاطر الغريب فجأة.!
لا شك في أن صدور الجريدة الخاصة بنتائج الامتحانات يخلق مساحة مختلفة بين الطلاب، وهو بكل الأحوال أمر كان رائعا مفرحا في تلك الحقبة، ولكنه وفي الوقت نفسه كان فاجعا لمن لم ينجح، ينادي وبين يديه رزمة من الصحف، وهو يجوب الشوارع مسرعاً يطلق صوته وينادي بأن بين يديه نتائج الامتحانات، ما يبث الفرح في قلوب، والخوف في قلوب أخرى ليست واثقة من تخطيها المرحلة بنجاح، وكنت أعتبرها فرصة نادرة ورائعة لأتعرف على مجموع علاماتي ومدى قدرتي وقوة عضلاتي الدراسية.. وكذلك مدى اجتيازي لهذا المطب المفصلي الذي لا مناص منه.. ومن يحصد النجاح يتلقّى مع التهاني والمباركات ، بعض نقود مكافأة كتعبير عن فرح وسرور.
حسنا كانت نتائج تحصيلي مقبولة، وعلاماتي مرضية، لا بأس بها فهذه هي إمكاناتي وجهدي.

ولا شأن لي بالمتفوقات، لكن تلك المسافة الفاصلة بيني وبينهن ربما تعني لي شيئا ما لكنها الآن لا تعني لي الكثير، وكل اعتقادي أنها ستكون على قدر أكبر من الأهمية في المرحلة الثانوية، لكن تلك الطالبة المنافسة لي، والتي كانت تكيد لي كيداً في كل المواقف التي كنت أراها سخيفة، وبراعتها في التصيّد الماكر، كيف وهي تتحصّل على درجات عالية.؟

هل هي إلى جانب مكرها تتمتع بذكاء جيد.؟ ولماذا لا تستعمل ذكاءها في أمور غير المكر والتلاعب والكيد.؟

كل ما يسعدني الآن أنني سأترك هذا العالم المليء بالمنغصات، على أمل الانطلاق إلى مرحلة تقودني إلى عالم آخر جديد، وأكثر رحابة..

. . .

ومن جديد.!

كان الانتساب لمدرسة جديدة أمر هام ومزعج في آن، فالإقبال الشديد والأعداد الكبيرة التي كنت أراها في كل مكان، وأمام كل نافذة تسجيل تجعلني أركض بلا توقف لأحجز لي مكاناً أو مقعدا هناك.

فجأة أراها أمامي.. ساجدة كراسة.!

يا الله، تراها تلاحقني إلى هنا أيضاً.؟

متى سأطوي هذا الاسم من ذاكرتي وأنسى مجرد التفكير بتواجدها واسمها المخيف المزعج.؟

لكن يبدو أن لا مناص من تواجدها حولي ومعي في كل مكان أذهب إليه، والدتها ذكرت أنها لا تريد أن تبتعد عن ابنتها كثيراً ولا تريد أن تفصل بينهما مسافات طويلة، وأن تلك المدرسة هي الأقرب إلى منزلهم ، والأقرب أيضاً بالنسبة لي، فأنا في كل الأحوال، لا أجرؤ أن أقول ذلك لا في حضرة والدتي التي حملت أوراقي وأشرفت على تسجيل اسمي في المكان نفسه، ولا أمام أحد غيرها عما يعتمل في صدري حينها ...ومن ثم و بكل الرضا كانت تتوق لتنهي مهماتها الصعبة دوما.

. . .

هذيان..

نمت في ليلتي تلك، وأنا أغصّ بكوابيس من الأحلام، ظهرت أمامي أشباح مرعبة، واختفت أشباح حتى غدا سكون نومي هلوسة وارتباكاً وحركة غير طبيعية انتبهت لها والدتي فراحت تحاول إيقاظي من اجل الذهاب إلى المدرسة، نهضت متثاقلة، وأحسست وكأني أمشي وأنا نائمة مغمضة العينين أتحدث بلغط غريب وسط ذهول الجميع، إلى أن اصطدمت بالباب فاستيقظت.!

السلطان عبد الحميد مرة أخرى يأتيني في حلم هذه الليلة، أعترف أنني معجبة بشخصية السلطان إعجاباً كبيراً، ولست أنسى ما قرأته عنه في الكتب المدرسية، وسواها من الكتب، ولع أشد ما أعجبني بشخصيته رفضه القاطع تسليم فلسطين لليهود الصهاينة، وعلى الرغم من هذا الشعور ما تزال حائرة ومستغربة لا تدرك ما السر الغريب الذي ربطها بشخصه، وجعلها تسبح في أحايين كثيرة في شخصيته الآسرة، وهل للدراسة أثر في ترك تلك الآثار القوية في حنايا شخصيتها الهائمة دائماً عبر المجهول.؟

رداؤه الجميل المزركش، وطربوشه التركي الفخم، وصولجانه الذهبي، واعتداده بنفسه، وشموخ كتفيه بفخر، أمرا يجعلها سعيدة انه اختارها ليظهر في حلمها المتواضع...

. لماذا السلطان عبد الحميد..؟!

سؤال لم تجد له إجابة مقنعة، وقد عللت الأمر بأنه انزعاج حصل لرؤية اسم تلك المنفّرة قلبا وقالباً.. ساجدة كراسة.!

يا لهذا الاسم الذي أصبح يشكل عندي منبت رعب، لماذا لا تتركني وشأني.؟ هل ستعاد تلك المناوشات والعراكات ونحن في مرحلة متقدمة من الدراسة.؟

يا للهول

سأحاول أن أتجاهلها، أتجاهلها فقط..

. . .

بداية غير موفقة

كانت المرحلة الثانوية مشوقة بكل ما فيها، وقد تمت التحضيرات لها بكل عناية، من جلب كتب جديدة، وملابس خاصة مدرسية كانت تملك صفات العزة بكل تفاصيلها بلونها الأخضر الداكن الرائع.

لم يكن احد يدرك مدى عشقي للون الأخضر بكل درجاته، أجده لون الحياة، ولن العزّة والكبرياء..

من المفارقات التي كانت لافتة ومحفزة ومزعجة في آن، والتي حفرت مع بداية السنة شعوراً آلمني، تلك الصفعة المعنوية التي تلقيتها عندما نسيت نفسي وأخذتني الثرثرة، ثم أعرف أن "رولا" وهي قريبة لي بعيدة، ومن طرف والدتي.. كانت مدرّسة مادة العسكرية، والتي، كما أعتقد، سيكون لي معها شانا رائعا في وقت لاحق..

من جديد، ابتسامة ساجدة الشامتة تلوح لي من بعيد.. شكّلت عندي رغبة متحفزة, في الثأر على حجم ما سببته لي من مشاكل، ما زلت أعد لها بطريقتي الخاصة طريقة جديد كي أثأر لنفسي، لقد كبرت فعلاً وكبرنا معا، .وما زلت أشعر بكل تفاصيل المرحلة السابقة وكأنها ماثلة أمامي تجعلني أكبر في عين نفسي بطريقة أرضاها، بت فتاة رائعة بكل ما تحمل تلك الكلمة من معنى، وقد أخذت المرآة مني نصيباً وافرا، خاصة وأنا أرتب شعري استعدادا للذهاب للمدرسة، وكأنني ألملم عن عمد، نظرات الإعجاب طول الطريق من بيتنا وحتى مدرسة ساطع الحصري.

من محاسن الصدف أن قرر والدي أخيراً اصطحابنا معه إلى فرنسا وسويسرا، حيث كان يقوم بأعمال قانونية تحكيمية صرفة بعدما تولى منصبا رفيعاً في القضاء، وبعد مقاومة من والدتي التي تعشق روتين الحياة ويصعب عليها أن تتغير، استطاع أقناعها، وفي إصرار والدي دوما ما يجعل من الصعب سهلاً.

حان وقت السفر.. وقد تزامن مع بداية العطلة المدرسية الصيفية، كنا نوصيه سابقا على حاجيات في خلال أسفاره الكثيرة، وما كان يلبي أكثر من نصفها، وحتى هذه لم تكن تنال رضانا أو إعجابنا، لكنها في هذه المرة ستكون الفرصة رائعة فعلا، خاصة أن الصور والمشاهد التي أتى بها إلينا جعلتنا في شوق عاصف للسفر.

. . .

في الطريق.

من أجمل مراحل السفر كانت الإجراءات التي أبهرتنا بداية، فالأمر جديد علينا كل الجدة، وملابسنا المنتقاة بعناية تأخذنا إلى سعادة غامرة وفرحة هامسة:

. اخفضوا صوتكم عند سؤالكم عن إجراءات السفر، لا داعي لكثير من الردود، أو دعوني أنا أرد عن الجميع.

هكذا كان والدي يغرقنا تحذيرا وتنبيهاً، حتى أترعنا بها تماما.

جلس كلّ في مقعده ونحن نتلفت من حولنا، وكل الوجوه من حولنا غريبة تقريباً إلا من عدة أشخاص عرب هنا وهناك، كل كان يرطن بالفرنسية وكنت اردد متذكرة دروسي باللغة، حتى إذا استعصى على فهمي شيء رجعت لوالدي مستفهمة:

. حسنا استديري واهدئي..

كانت دمشق من عل رائعة جداً، وكأنني أودعها للمرة الأخيرة، لست أدري لم ساورني هذا الشعوري الغريب، حتى عن فارقناها، ثم بدت لنا الصحراء القاحلة...

كان الطعام غريباً أيضا، قطع من صدور الدجاج مغلفة بجلاتين بقري شفاف، وحلوى لا ادري ما هي، وقد سألونا أيضاً عن رغبتنا في الشرب.! وقد تراءت لي زجاجات المشروبات الروحية متعددة الأشكال والألوان، كان يطلبها الأجانب بكثرة، وزعوا علينا الألعاب الرياضية والجرائد الخاصة بالطائرة، وبعد شرح إجراءات الأمان المعتادة، سبحت الطائرة في فضاء رائع وأنا أستمتع بالنظر من النافذة على سحر جمال الأرض والبحر والأمكنة التي تمر الطائرة من فوقها، وما لبثنا أن وصلنا مطار "أورلي" لننتقل منه إلى سويسرا بالقطار الأروع، والذي كان كل جمهور الركاب تقريباً مسمّرة عيونهم على جرائدهم وكتبهم، مما دفعني لأخرج كتابا بالفرنسية من محفظتي، كنت قد اشتريته من بائعي الكتب الذين يتخذون الجدران والأرصفة معرضا لكتبهم..

نظر إلي والدي، ثم راح يضحك بصوت عالٍ وقال باللكنة الشامية المحببة:

. ما في خواص أصيلة هي أصيلة ..

في فندق "ديبرج" وأثناء اجتماع حقوقي وحركة في محاكم دولية، ورغبة جامحة مني لأتلصص، وأفتش كي أعرف شيئاً مما لا أعرفه عن عمل والدي، نزلت الدرج بهدوء، ونظرت، في اللحظة التي شاهدني فيها والدي، فقطب حاجبيه، وأخفى في صدره شعوره بالغضب كالعادة من تصرفي الصبياني، وأدركت أن العقاب سيطالني فور انتهاء جلسة العمل.

. ما شأنك أنت كي تتلصصي على الحاضرين؟، وتخوضي في أمور لا تفهمينها.؟ ما هذا الفضول الغريب؟ وكيف لم تمنعك والدتك؟

ثم أستدرك بغضب:

. ماذا لو دعاك احدهم لقضاء ليلة حمراء؟

قلت بسذاجة:

. ليلة حمراء..!!

سمعت والدتي حوارنا فأخذت والدي على جنب زاجرة ومعنفة أن لا مجال لذكر أمور كهذه لفتاة لا تعي أي منها الآن...

. حمراء؟ ماذا يعني حمراء؟ صحيح هناك من كان يرطن بالفرنسية، يومها لما كنا نحاول لملمة أغراضنا لجناحنا في الفندق يدعوني لأمر لم أفهمه أبداً..

قال بأسى:

. لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

قاطعني:

. يا بابا هذا الشخص قليل الأدب، لا شأن لك به، ولعلمك، هنا في هذه البلاد كل شيء متاح، ومباح، وأنت ترين القبل منتشرة بشكل عادي بين الرجال والنساء، ولكن لا شأن لنا بهم.. ماشي أفهمتِ ؟

. لقد فهمت يا أبي.. نعم أمرك

تتدخل والدتي وتقول هامسة:

. لماذا تحاول أن تشرح لها ما لا تعرف.؟

رد عليها بجفاء:

. يبدو أنها صيادة متاعب، حسبنا الله ونعم الوكيل، الله يكمل هذه السفرة على خير.

قررت لجنة القضاء التي يعمل معها والدي نقل اجتماعاتهم إلى فندق آخر قريب، ودفع والدي فاتورة الحساب على أمل العودة، وقرر أن ينقلنا إلى الفندق الجديد بعد أن ينهي تلك الجلسة الطارئة..

جلسنا في بهو الفندق نتابع التلفاز الناطق بالفرنسية، وقد أثار إعجابي ، رغم أنني لم أفهم مما قيل إلا القليل، وقد لفت انتباهي، كما قال والدي، مشهد تبادل قبلات رقيقة بين نادل الفندق وعاملة النظافة، بينما عاملة أخرى جزائرية كانت تعمل بصمت، وبأدب جم...

همست تلك الجزائرية برفق لي:

–لا تلقوا المناديل الورقية في المرحاض، لقد كانت مهمتي اليوم في غرفتكم متعبة جداً.
انتابني خجل عميق، فقد كان أخي من يفعل ذلك، ولست أنا.. ورغم هذا لا مجال للشرح الآن..
فجأة قفزت إلى رأسي فكرة لعمل ماكر، فسكوت أمي وهدوؤها المعتاد لم يكن يرضيني وهي تستمع لتعليمات والدي حرفياً، كان حرصها على تنفيذ كل توجيهاته غريباً جداً على الأقل بالنسبة لي، حتى أصابني الملل!.
قلت بحماسة:
. أمي.. سوف نلحق بأبي في الفندق القريب ، لقد طال انتظارنا..
. ماذا؟ لن أتحرك من هنا أبدا, هكذا نبه علينا لا تجري علينا المتاعب أصيلة.انتظري حتى يأتي والدك كما وعدنا..
. لكنني أعرف الطريق جيداً، فقد حفظت شوارع جنيف شبرا شبرا
و فعلا ذهبنا بعد أخذ ورد طويل وملح ووسط ذهول والدتي الكبير، وقد وجدت نفسها محاصرة بإصرارنا، خاصة أمام طلاقتي في تكلم الفرنسية المتزايد.
. حسبنا الله ونعم الوكيل أنت المتهمة دائماً
. حسنا سأتحمل نتائج عملي.
وراح أخي يغني بصوت خفيض، وعلى طول الطريق أغنية يا مال الشام!!!
همس احد السويسريين في أذني:
–هل تحتاجين شيئا (بالفرنسية)
فدهشت ولم أجب وتذكرت كلمة ليلة حمراء...
وصلنا، فرأيت والدي وسط هذا الجمع من الفرنسيين، يخطب فيهم , ويتحدث بكبرياء وعزّة، كان مشهداً ملأني بالاعتزاز والفخر..
نعم أحب سوريا وأهل سوريا نحن هنا أيها الغرب الغريب...
عندما شاهدني، قطب ما بين حاجبيه بقوّة، وبدا غاضباً جدا مندهشا من تهوري، وما إن انتهى من مرافعته، وعمله واجتماعه، وكأّنه فرّغ بي جام غضبه، وقال مزمجرا بغضب شديد..
. لن أصحبكم معي مرة أخرى أبداً...
سرعان ما انتهت الرحلة بعد أن بدأ شهر الصيام في دمشق، وعدنا من حيث أتينا وانعكس المشهد الذي رأيت، والمترو الفرنسي وخرائطه وقد تركتهم هناك وسط تعلقي الغريب، كان علينا أن نعود

بسرعة، حيث الأعمال والأشغال لا تنتهي هنا أبداً، وتذكرت في طريق العودة كيف أكلنا من ما لم نثق بماهيته الحقيقية إلا بعد حين.

لم نكد نصل إلى سورية الحبيبة حتى عاد والدي بعد أسبوع للسفر ليعود بمحصلة عمله هناك المادية، وبات لزاما عليه العودة إلى بنك سويسرا في مدينة بال كي يجمع ما جناه بالعملة الصعبة.

. قلبي مقبوض يا أبو أحمد لا أدري لماذا.!

–أنا لا آبه لتلك الترهات يا امرأة توكلي على الله..

–ونعم الاتكال، إن لم يكن الأمر هاماً لا تسافر، وكلّف من يقوم بالعمل مكانك..

. أنا لا أثق إلا بالله وبنفسي

–يا رب، يا رب بحماية الرحمن..

سافر والدي وسط تمتمات والدتي ودعواتها وتسبيحها..

وأقنع والدتي وهو يقول:

. لو لم أسحب وأسترجع نقودي من بنك بال اليهودي فقد أخسره بشكل أو بآخر، أرجو أن أحصل عليه بسرعة..

ثم تمتم بضيق:

. أنا أفهم كيف يقفون ضد إجراءات سحب المال، ويحاولون بكل جهدهم أن يقنعونني بجدوى تشغيل أموالي عندهم، وفي بنوكهم..

أجابته والدتي بدهشة كبيرة وكأنها لم تفهم ما قاله:

. لماذا تقول لي هذا الكلام؟؟؟

. لا تنسي أن رئيسة الوزراء هناك مكّارة.. يا الله، كيف سأخرج بعرق جبيني من هناك نقدا؟ أنا لا ارتاح لها أبداً، ولم أجد من يحول لي تلك المبالغ , ولا تنسي أن تعاملها مع العرب خاص جدا رغم دماثتها الظاهرية.

. . .

مرور الوقت

مضت سنوات الدراسة الثانوية رتيبة، لكنها رغم ثقلها، كانت جميلة جداً، وأنا أحصد فيها تقدمي الموفق بشكل دوري، وقد بدأ والدي بالتلميح لوالدتي بعزمه على الانتقال إلى فرنسا وإكمال إجراءات الإقامة هناك وبشكل جدي، وقد عرضت عليه الإقامة هناك بإغراءات مدهشة، كان يعتبرها فرصة مميزة وعرضا مغريا جدا، وسوف يقوم بإجراءات روتينية كي يسجلني في جامعة سان ميشيل التي درس فيها قديما كي تكون دراستي أكاديمية مثله..

. سوف تبقى في منزل المحامي فليشو، وتكتسب لغة قوية كباقي الطلاب المغتربين، فانا أعلق عليها آمالا كبيرة...

لكن والدتي خرجت من هدوئها المعتاد واعترضت بشدة قائلة:

. إلا أصيلة.. أنت تعرف فضولها الشديد وسوف أفقدها تماما، وأنا لا أبتعد عن وطني مطلقا فلا تحاول.. .لا تحاول أبدا .. ولأنها تتعبني بسلوكها المنفتح، قد أزوجها عند أول من يتقدم لخطبتها وأرتاح.. فكر جيداً وستجدني محقة جداً..

إلى هنا انتهى الحوار العقيم، وكأن الأمر أسقط بيد والدي رغما عنه، وبات لزاما علي تقبل مصيري من المتقدمين للخطبة في تلك المرحلة التي وصلت إليها، حتى على الرغم من انتسابي للجامعة وكأنه حكم الإعدام ينتظرني في أي وقت ودون مقدمات..كيف استسلمت للفكرة حينها ؟مازلت لا أدري حقيقة...

مرت السنة الأولى في الجامعة، في كلية الاقتصاد وسط القاعات المؤقتة الحديدية، وهواء نتنفسه بشهية، وعالم جديد تماما...

كانت مادة المحاسبة من أصعب المواد وأكثرها تشويقاً عبر هذا المنهج الممتع...

وكان جل المنهاج الدراسي عبارة عن أوراق متفرقة جمعت بطريقة بسيطة جدا، وقابلة للعطب السريع، ورغم هذا كان إقبال الطلاب للحصول عليها والجدية في البحث عن كل ما يقدمه أساتذة الجامعة أمر يثير الدهشة، وكأنهم في سعي محموم للنجاح، عبر ظاهرة رائعة مشجعة جدا.

كانت تبدو عليهم جميعاً مظاهر الفضول في عالم جديد تماما عليهم، حتى أن مكتبة الجامعة غصت بهم، ولم أكن واثقة من أن جلهم يملك الإرادة الجدية في الدراسة، فقد كان منهم من أتى من ريف بلادنا، وكانوا يجدونها متنفسا جميلا، وفرصة سانحة لتوسيع علاقاتهم الاجتماعية في عالم حضاري مقارنة بمنطقتهم، ناهيك عن الجنسيات المختلفة التي امتزجت مع الطلاب، وعبر خطة المنح الدراسية التي كانت تجعلنا ندهش حقيقة لهمتهم وتفوقهم..

كانت التجربة بالنسبة لي شخصيا على الأقل، نقلة نوعية بعيدة المدى بكل ما تحمل من مفارقات ومتناقضات وميزات وسيئات.. بكل الأحوال ما كنت لأدخل في علاقات، كنت بغنى عنها رغم فضولي الكبير، فما زال الجو بالنسبة لي جديدا كل الجدة، وعالم لدهشة ما برح يفاجئني بكل جديد، كان مختلفا تماما عن الجو العام الذي بدت به الجامعة بداية، عند إجراءات الانتساب والمفاضلة[7] التي كانت تسبب زحاما كبيرا وإرباكا لموظفي الجامعة ما بعده إرباك، وكأنك في أزمة غذائية، أو في انتظار طويل المدى على باب فرن!.

لم أعد أدري ما هذه الجرأة التي جعلتني أسأل الأستاذ مراراً عن أمور مستعصية عن الفهم في الكتاب، لكن الأمر تطور إلى مراسلات عبر صندوق البريد الجامعي الأحمر المعلق خارج الحرم الجامعي...

ليشير إلي في المحاضرات التالية، ويقول انه يجب أن أحضر مبكراً وأجلس في مقاعد الصفوف الأولى فالزحام يجعل الطالب أصما أبكما اخرسا من الجلبة والتمتمات المزعجة، ناهيك عن معرض الأزياء اليومية التي كانت تدهشني في كل يوم !

من سوء طالعي أن فادي دخل كلية التجارة مثلي، هكذا تبين لي عندما شاهدته متواجدا في المحاضرات الجامعية نفسها، وباتت عيناه تراقباني، وأنا أداري، وأتصرّف وكأنني لا انتبه إليه، ولا أهتم بنظراته، لكنني كنت أبحث فعلا عن صداقة فتاة، أشعر أنها تلزمني بإلحاح، حتى لو تغيبت عن الدروس، أو احتجت لأمر ما سأجدها قربي، رغم حاجتي للصداقة بكل الأحوال...

. هل لديك جميع حلول مسائل الكتاب الأول للمدخل للمحاسبة؟

قفز فادي متعجلا وكأنه البرق المخيف:

. أنا لدي كل المحاضرات تفضل حازم، ولا تتأخر في رد دفتري، فانا لم أراجعها بعد.

عدت يومها للمنزل متشنجة مستغربة مندهشة في الوقت ذاته من تصرف فادي المباغت، لكنه وقد شعرت به يتبعني، ويهرع ورائي، رغم ركوبنا حافلتين مختلفتين، وما أن وصلت إلى باب العمارة التي أسكن فيها:

. أصيلة

أجبت ببرود:

. نعم

. إذا أردت أي شيء فأنا بالخدمة..

[7] المفاضلة معدل درجات مفروضة للناجحين في الثانوية العامة تؤهلهم للانتساب لفرع علمي معين بحسب معدل الدرجات الدراسية.

قلت بشيء من الضيق:

. فادي، أرجو أن لا تحاصرني هكذا فقد أخفتني فعلا هذا اليوم، خير ماذا هناك؟.

. أصيلة أنا اعرف فضولك وأخلاقك في الوقت نفسه، أرجوك سامحيني لكنني أشعر بواجب الجار للجار.

أجبت باقتضاب:

. شكرا لك

ومضيت، أبحث عن تأويل لتصرفه المجنون هذا، وأضع له مائة احتمال واحتمال، خاصة وإنه يتحدث مع الفتيات بشكل عادي ومألوف جدا، فلماذا كان تصرفه اللبق هذا مختلفا؟ وما زالت جملة أم رامي ترن في أذني:

–لا تتحدثي إلى فادي كثيرا..

فوجدت نفسي أجيب نفسي

. الحيرة تأكلني، على الرغم من أنني أجد من نفسي حزما ورباطة جاش.!هل كان فادي يشبه فارس فعلا؟

. . .

نقاطٌ على الحروف

مرت السنة الدراسية الأولى محفزة رغم كونها غريبة في كل تفاصيلها، ممتعة في جدتها بكل الأحوال، حيث كان الشعور بالزهو للانتقال لتلك المرحلة الحساسة، والأكاديمية الرائعة، لم تترك لي بقية مشاعر كي أعبر من خلالها عن كل ما مر بي، حيث فاضت رغما عني على الورق وقد استنفذت كل طاقاتي الكتابية، في تسطير ما كان يجري من حولي، فكنت أرقب المشاهد التي أراها كل يوم بدقة متناهية لغرابتها فرادتها، وقد سطر نفق المشاة هذا في أوتوستراد المزة[8]، والذي كان على ما يبدو دثارا للعشاق أغرب المواقف برغم هدفه الخدمي أولا وأخيرا!، وقد صمم أساسا لتلبية حاجات الطلاب فقط، من الأدوات المكتبية والدراسية!. فلماذا يتحول كل شيء إيجابي في حياتنا لأمر سلبي مع الوقت؟.

كنت أستغرب النظرات الوقحة الخفيضة لطالبة ما كنت ألقاها هناك، وهي تتصنع خجلها بطريقة غريبة، والحوار الذي كان يتناهى لسمعنا، كان يفشي سر العواطف والبوح المنفر، والعناق الدافئ!، والذي كان يجعلني أشمئز بقوة مما أرى، فمؤكد أن هناك ما خفي وكان أعظم! وقد وصلني قيل عن قال، يكشف مضمونا يندى له الجبين حقيقة، ولم يعد يهمني صوابه من تمازجه مع البهارات والفلفل الحار بل يكفي ما نراه يوميا...

ما كان يزعجني ولا أجد له تبريرا انزعاجي من عفوية فادي مع الفتيات، ولا أدري لماذا كان هذا الشعور الغريب يراودني!، فأعيد مواساة نفسي من أن ملته ودينه وواقعه المنفتح كان يجعله بتلك التلقائية التي لا أحبها، بل ربما لأنني لم أعشها...

باغتتني من الخلف آرام، وهي تبتسم من هول مفاجأتي وما زالت تؤكد لي أن فضاء سراحي الفكري لم يعد مجالا لصداقتي فكل شيء على بساطته يجعلني اخرج دفتري لأكتب كل شيء! ورغم هذا كانت سعيدة لنجاحها في اختراق وحدتي الفكرية بقوة.

مشينا سوية عبر النفق كممر أمين للوصول إلى حرم الجامعة وهي تحدثني ككل يوم عن واقع المدينة الجامعية المزري.. وكيف أنها ما زالت تشكر الله أن والدتها لا توفر جهدا في توفير المئونة التي تحفظ لها ماء الوجه أمام الجمع الغفير من الطلاب والطالبات هناك والذين كانوا يضطرون أحيانا للعمل في أماكن مريبة، فواقعهم الفقير في الريف كان يجبرهم على شق طريقهم وحدهم، كان قد فرض عليهم ظهور نماذج صعبة الهضم، وتفلت أحيانا بسببه وبسبب اليتم الاجتماعي الذي كان قد سبب انحدار لفتيات ما توقعنا أن ينحدرن هكذا.

---

[8] حي في دمشق كان يعتبر من ريفها حتى ضم أخيرا وصار من شوارعها الاساسية،

. نعم يا أصيلة لقد تلونت منى حتى نفرنا منها وأسبغت عليها نعما لم ندر إلى الآن من أين لها تلك النقود الكثيرة، فالعمل الذي تسلمته كسكرتيرة جعلها كما عرفنا مؤخرا، تبيع أغلى ما تملك وحتى لو لم تفصح، فما نراه كل يوم يكفي لنفهم المعادلة الخاسرة التي لم تعيها حق وعيها! لا تدفعيني للبوح بالتفاصيل أكثر، لقد ضاعت منى وانتهت ومهما حاولت لملمة جراحها، فالأمر بات مخجلا جدا، وقد ابتعدنا عنها حتى لا نسمع ولا يمسنا أذى منها خاصة أنها باتت صماء بكماء عقليا..

صمتُ برهة استجمع ما قالت وكأنها صبت الزيت الحار فوق رأسي!!!

. يا آرام ما قلته فظيع..

. وهناك الأفظع لكن لننسى حتى لا نكتئب، واطمئني فنحن بخير.. ولا تنسي أنك مرتاحة عائليا وهذا وحده حجة عليك لتبقي في مسار نظيف تماما..

. . .

خطبة أصيلة

أحمد متوسط الطول، أشقر بعينين عسليتين جذابتين، وسيم الطلعة ثابت الخطوات، غامض الحرف، ذكي الجملة والرد، هادئ الملامح رصين السلوك، هكذا عبرت أمي لي عن شعورها لدى رؤيته أول مرة، وقد وافقتها على ذلك رغم حيائي في ذلك الوقت، فبالكاد رفعت نظري لأراه، كان هذا عند أول لقاء من أجل تقليب الأمور قبل عقد العزم، وبعد لقاء الأهل بنية الخطبة، كنت أشعر وكأنني أعرفه منذ زمن، أو أنني تعودت الألفة دون جرأة سلوكية مني، وفي كل الأحوال لم أعد صغيرة.

. عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة، وإن ترددت في قبوله سوف أتزوجه عنك..

هكذا قالت خالتي التي كانت قريبة وبعيدة عني في الوقت نفسه، لقد تعودت أن احترم رأيها مهما كان فهي خبيرة اجتماعية يحسب لرأيها ألف حساب رغم تواضع ثقافتها، فقد أقحمها عالمها النسائي رغما عنها في حواراته النسوية التي لانهاية لها.

. حسنا يا خالتي، على هونك لم يحدث شيء بعد..

. ومن قال لم يحدث شيء أنا قرأت في عينيه قبولا، خذيها مني.

. لم تكن القهوة بتلك الجودة التي توقعتها.

. وهل توقف الأمر على جودة القهوة؟ المهم جودتك أنت..

وضحكت مقهقهه وسط خجلي وكأنني فأرة تجارب، وكبش الفدى في تلك العائلة القليلة العدد..

. . .

القرار الأخير

علمت مؤخرا أن خالي الصغير عزم على العمل خارج القطر، ذلك انه أحبط دراسيا ولم يقبل المحاولات مجدداً، وقد همس لي مرة انه سوف يعتني بي لو قررت السفر إلى هناك وانه سيسبقني حتما ما دامت الخطبة ستدوم سنة على أقل تقدير، وكأنه قرر قبلي وما كنت قد تأكدت من مشاعري بعد...

أشعر باضطراب يأكلني بين ابتعادي عن أهلي وجامعتي وعالمي الذي أحب، وبين أن أرحل مع زوج لم أخبره بعد رغم تقبلي له بداية، كان يجب علي أن أنتزع منه موافقته على إتمام دراستي الجامعية.

عدت من الجامعة وقد أتى موعد القرار النهائي ويجب أن تقولها أمي عبر هاتف سيجري من قبل أهل احمد، ومازالت تنتزع مني القبول بيقين، لم يبدِ والدي أي تحفظ، لكنه همهم مرة قائلا:

. السفارة الأمريكية؟ ربما قدم لنا هذا الأمر شيئا ما وإضافات جديدة لمسارنا القضائي، ويبقى الأمر منوط بموافقة أصيلة، فرضاها وقبولها وقناعتها هامة بالنسبة لي جداً، فهي لم تعد صغيره فقد باتت تعرف أين تكمن مصالحها تماماً، وستكون مسئولة عن اختيارها منذ الآن فصاعداً، وما فهمته من خالتك أن والدته ذات شخصية قوية جداً، وربما سفرك الآن فرصة سانحة لتختبري أحمد وحدك ,وتعيشي في أمان من القيل والقال، ولولا هذا ما وافقت.. الأهم أن لا بنت تعود لي مطلقة ولا متمردة على ظروفها.. سوف تتقبلين هذا الجهاد وتتقبليه على ما فيه من علل, بإيمان ويقين وما حملته من مبادئ ومفاهيم تكفيك.. مفهوم؟

.مفهوم..!!

لم أفهم تماماً في ذلك الوقت ما كان يقصده، لكنني فعلا لم أكن على يقين كامل، ولا بقناعة تامة بأحمد، وربما قبولي للتحدي لذاتي هو الذي يدفعني دوما للمغامرة، أدخلها بكامل طاقتي لتجعلني أقدم وأفكر بجدية، لكن غموضه الذي لمسته في شخصه أخافني منه ضمناً.!

عدت وقد تغيرت ملامح الدنيا حولي، وكأنها أزهرت من جديد إزهارا لا أعرفه، ونفحات عطر لم اخبرها بعد..

حتى السماء بدت لي مختلفة.. لقد اختلف حولي كل شيء.. اصطدمت رغما عني، ودون انتباه مني بفادي ولم أدر إلى الآن هل هو تعمد الوقوف بدربي؟

. آه عفوا فادي

. الذي أخذ عقلك يا هناه.. والله أحبك.. يا لحظي العاثر.

صافحني مهنئا على غيبة مني، وضغط على يدي، وأطال النظر إليّ بنظرة ذات معنى عميق.. فأدهشني.. ووجدتني وقد هربت إلى منزلي مندهشة من تصرفه الأحمق هذا...

وجدتني أدخل على أمي دامعة العينين، دون أن أنبس ببنت شفة، عبر نظراتها من تحت النظارات وهي تخيط شيئا ما..

. ماما أنا موافقة

–على بركة الله...

. . .

السر الكبير

في يوم ماطر شتائي، حيث كانت والدتي خارج المنزل، وابتليت رغما عني بمهمة طبخ طبق اليوم الذي كلفتني به والدتي كي أسد النقص الذي خلفه مشروع جهاز العروس الذي كان يكلفها ذهابا وإيابا للسوق بشكل دوري، ورحلات تسوّق تكاد لا تنتهي من كثرة ذيول حاجياته، وكنت أجهل فعلا ما يجب أن تحمله العروس لبيت الزوجية وكل يوم أجد جديدا لا أعرفه...

يجب أن تجلبي له ملابس وأغراض ممتازة تخصه، وهذا تقليد معروف، وسيكون من ضمن الملابس التي سنشتريها لك.

أخذني والدي عندما انصرفت والدتي إلى السوق يومها، وبعد غمزة بسيطة لفتت انتباهي وأخي محمد مستغرقا في متابعة التلفاز...

. أصيلة سوف أوكل لك مهمة لن أثق بأحد سواك كي تحافظي على هذا السر الكبير، فلن يفهمني في هذه العائلة إلاك...

. سر كبير؟ أمرك يا أبتي لكنني مسافرة!!

. نعم يا أصيلة أعرف لأنك مسافرة، واعرف أكثر إنها أمانة لن يحسن الحفاظ عليها سواك، افتحي ورق الجدران هذا قرب صندوق الجارور الخارجي للنافذة.

. حاضر يا أ بتي

. ماذا ترين؟

. لا شيء!

– أدخلي يدك في الفجوة، وأخرجي هذه الرقاقة الجلدية الكبيرة بسرعة لأراها..

. حاضر

أخرجت رقاقة كبيرة ملفوفة بإحكام وعليها كتابات لم أفهمها..

. هذه وثيقة خطيرة كتبت بالعبرية، يا أصيلة كان قد تحدث لي عنها الدكتور جابر عبد الوهاب أرسلها لي لثقته بي ، فهو محاضر في جامعة الموصل حالياً، و يتوقع أمورا سياسية ستجري في العراق لاحقا ولن يجد أحدا يأتمنه عليها غيري، وقد كان ذو منصب كبير في جيش العراق الذي كان رافدا وداعما لقواتنا المسلحة في حرب تشرين التحريرية..

ثم أردف:

. لن تفهمي مضمونها الآن، ربما بعد ذلك.. لكن لن تخرج هذه إلا في حالين..

. ما هما يا أبتي؟

. أن يطلبها هو شخصياً في يوم ما، وسأعطيك اسمه ورقم هاتفه وعنوانه كاملا، لتخبئيه بدورك بمكان خاص في منزلنا، وفي حال وفاتي، وبهذه الحالة تصبح أمانة لديك أنت..

. لا سمح الله يا أبتي

. حينها ستكون أملاكاً عامة وطنية، وستعطيه لمن يستحقه ، وسوف أعلمك بذلك في وقته...

. لقد أخفتني يا أبتي..

. لا تخافي ولا تجزعي هي الأمانة فقط، اسمعيني جيدا الآن ثم انسي.. هل أقول اتفقنا.؟

. نعم لقد اتفقنا..

حتى الآن كان الأمر طبيعياً جداً لان عمل والدي كان يفتح له أبوابا كبيرة كهذه، لكن ما لم أتوقعه أبدا أن تجر لي تلك الرقاقة فيما بعد متاعب لم أتخيلها أبداً..

. . .

تخبط...

نمت ليلتها وقد خططت مخبأ خطيرا لتلك الأمانة، وبالطبع سوف أخبر والدي كما وعدته، وقد بت ليلتها وكأنني أرى فيلما وثائقيا مرعباً يلخّص حياتي كلها، وكأنني سأودعها بلا رجعة!

كان اعتراف فادي بحبه لي أمرا غريبا جداً، ونصيحته لي بأن لا أقدم على زواج خاسر، رأيته شكّل لي حالة صاعقة أكثر، غذ لم أفهم تبعات تحذيره حينها .، ولأن علاقة زواج بيني وبين رامي مستحيلة، كان الأمر يجعلني لا أفكر به بعد ذلك أبدا!

وأعترف أنه وعلى الرغم من حبي لفادي، وقد اكتشفت ذلك في ذاتي متأخرة، وبعد اعترافه، لقد منعني حيائي وديني الذي لن يسمح به زوجا أن أقرّ بذلك، ولو بيني وبين نفسي، وهو أمر زرع حيرة بكماء في عقلي وروحي، ولم أكن لأسمح يوما ما بالتجرؤ من جديد بطرح ما قاله، وما كنت أسمح لنفسي أن أفكر مجرد تفكير بطرح الفكرة كحوار بيننا وأنا أتذكر اعتزازه بتنصر جارنا العزيز!!

ترى هل كنت سأصبح النموذج الجديد بعده؟

لقد بات اعترافه لي لغزا لم يحل، وربما كان تهربا مني أو محاولة تغطية لنوافذ قلبي التي كانت تترنح فرحا غامضا مبهما تماما...

بات منزل جدي المتوفى حديثا والذي آلمتنا وفاته كثيراً، وكأننا فقدنا الأم والأب، قصراً منيفاً، خاصة أنني سأفارقه كذلك قريبا...

كان علي أن أزور أم رامي، والتي يجب أن أمر بها قريبا فربما كان لقاؤنا الجديد هاما ويضع بعض نقاط على حروف بحاجة لنقاط جديدة، وقد يحمّلني ما يجب أن أتزود به قبل السفر...

ظهر لي يومها في الحلم، السلطان بثوبه الفاخر الرائع يشير لي من جديد، ولكن في هذه المرة فهمت الإشارة لأن المكان بت أعرفه، إنها الأمانة، نهضت فزعة، وضعت يدي على فمي لا أريد أن أتفوه بسري، فإشارته وتحذيره لي لم أفهمه جيداً فقد أشار إلى مكان الأمانة، وأشار إلى أحمد أيضاً.!

وماذا عن أحمد.؟

كأنه يدعوني إلى رفض الارتباط به، لكنني وعلى الرغم من ذلك كله.. قررت أن أقبل الزواج به.

سؤال فرض نفسه علي:

. لماذا يأتمنني والدي ولا يأتمن أمي رفيقة مشواره ونسيج عشرته؟..

لست أدري إذا كنت سأتشجع على سؤاله، أو أؤجله إلى حين خوفاً من أن افقد هذا الامتياز الذي أبحث..

في اليوم التالي عدت من جامعتي منهكة، لكنني عقدت العزم على زيارة أم رامي، ومنزل جدي في اليوم نفسه وبرفقة والدتي وأخي محمد، ورغم أن العرس ليس قريبا جداً، إلا أن ظروفي كل يوم باتت أضيق وأضيق، لا أدري حقيقة من أين تأتي والدتي بكل هذه المهمات!! حتى والدي قال لها يومها:

. لا تثقلي كاهل أصيلة.. الزواج في حال السفر يختصر كثيراً من الحاجيات...

. لن أدعها تحتاج لشيء ولتفعل ما تفعل بعد ذلك بيت والدها عزها وفخرها، ولسان الناس لا يرحم.

استأذنت والدتي بالذهاب فقالت أنها ستأتي معي، فتعمدت أن أسبقها فربما كان لي حوار مع أم رامي يخصني وحدي!!!

. كيف حالك يا أصيلة؟

. الحمد لله خالتي، وكيف حال خالة أم زكي؟

. دائما توصيني بك وكأنك من بقية عائلتها أنت محبوبة يا أصيلة...

. الحمد لله، هي إنسانة نادرة الوجود ببساطتها وإخلاصها وشفافيتها..

. وأنت إنسانة صادقة يا أصيلة في زمن الكذب والنفاق وتعدد الأقنعة، المهم ستتزوجين يا أصيلة ها؟

. نعم خالتي أم رامي وقد تم العقد بسرعة لافتة، أعتذر لك، ربما دعوناك إلى العرس.!

. لا عليك يا أصيلة فانا أعلم الظروف الصعبة في تلك الأمور، ورضا الناس غاية لا تدرك، على بركة الله، ولكن احسبي خطواتك جيدا فزوجك ليس سهلا أبداً...

. ماذا عنيت بذلك؟

. كل الرجال كذلك ولكن من يعمل هناك في الخارج، حتما سيكتسب منهم الكثير..

. نعم أظن أنني فهمتك، بإذن الله سأكون عند حسن الظن..

وقلت كأنني تذكّرت أمرا مهماً:

. لم تقولي لي ماذا حلمت ذلك الحلم عني؟ صحيح نسيت كل هذا الوقت أن أذكرك به...

. صل على النبي

. اللهم صلي وسلم عليه

. لقد رأيت شخصاً ما يدعى أحمد يتعارك مع السلطان عبد الحميد، يريد أن يأخذ منه ملابسه السلطانية وأنت بين هذا وذاك مشتتة، وبقي الحلم كذلك حتى نهايته..

. ما معنى هذا خالتي؟

. معناه أنك مقبله على عالم جديد وامتحان كبير، أتمنى أن تتعايشي معه بسلام

. أخفتني يا خالة أم رامي

. مثلك لا يخاف إلا من الله..

نهضت أريد الخروج قبل حضور والدتي، وأفكاري تعصف بي وتجتاح بقايا السلام في داخلي..

لكن أم رامي أردفت تقول بما يشبه الهمس:

. حافظي على الأمانة.!

أصابني الذهول، لكنني لم أشأ الاستفسار فربما كان هاجسا لا معنى له، فسرّي لي وحدي أنا على يقين من ذلك، لتحضر والدتي فوراً ونجلس قليلا ويتم حوار خفيف وتمضي أمي لنهيئ الغداء قبل ذهابنا لدار جدي..

كان منزل جدي أروع من ذي قبل، لا أدري كيف بات كذلك رغم فراق جدي لنا، والوجوه غير الوجوه.!

وما أحزنني جداً رد خالي عندما ألححت عليه على ضرورة متابعة محاضراتي ومراسلتي هناك كي لا انقطع عن الدراسة...

. انتظري أن تتيسر أمور سفر خالك الأصغر إلى هناك، قد يساعدك من خلالنا فنساهم بذلك بشكل إيجابي وكما تحبين يا خالي..

. كيف من هناك؟

. سنفكر فيها لا تخافي، ركزي الآن على العريس ههه..

أصابني رده بالخيبة والإحباط والغيظ، لماذا هذا الطريق الطويل؟ ليكن التواصل شخصياً لأكمل زيارتي لمنزل جدي وأنا لصيقة بخالتي، أجمع حكاياتها الأسطورية على شريط تسجيل لآخذه معي وهي تضحك قائلة:

. إن لم تجديني بعد الآن فقد أخذت أعز ما أملك

. أطال الله في عمرك..

. . .

وداع أصيلة

بات عام 1982 عاماً مليئاً بالغصة، لا أحب أن أتذكره أبداً، وقد حمل أحداثا متناقضة أشد التناقض، وبات ذهني وسطها لا يحسم أمره كرأي خاص، وكيف يكون لي رأي خاص وأنا التي كنت أحاول أن ارتدي شخصية والدي بطريقة ما فوجدتني أحمل نفسي وحدي.؟

وجملة وقعت في أذني لدى حديث جانبي مع خالي حول الأحداث القريبة قائلا:

. يجب أن نحفظ جيداً أن كل حدث لا يكون بريئا كما نتوقع، وأن الأيادي الخفية موجودة دائما في ساحته فحادث الأزبكية[9] كان وراءه الغرب وسوف أبين لك بالدليل القاطع من هم تماما، وعندما يقتل جمع غفير بفعل مجهول، ويقتل جمع متنوّع الملل والمذاهب والأديان، سوف يرمي كل باللائمة على الطرف الآخر ومن هنا تنشأ الفتن، وغالبا تتهم جماعات لا نتوقع أن تتهم أصلاً، ولا ندري ما هو دورهم الحقيقي حينها، ومن المحرك، ولكن يجب أن نفهم أن الدوائر تكبر وتكبر تلقائيا بعد ذلك، حتى تشمل من لا ناقة لهم ولا جمل ومن هنا يتسلل الخونة...

. –فهمتك.. ولكن هل هناك من لا يفهم هذا الدرس تمام الفهم ويوجه أصابع الاتهام إلى من يجب ألا ندينه.؟

كان هذا الحوار وحده كاف كي يترك بصمة خرساء في ذهني سوف أستحضره في يوم ما.!

كانت سهرة عائلية بامتياز في منزل أهل أحمد ، ارتديت فيها فستان عرس سافر وجدتني غريبة فيه، لم أجد أصيلة التي اعرف، بل وجدتني وقد تحولت إلى سيدة بسرعة، لم أعرف نفسي في المرآة، بت امرأة أخرى تماماً.!

. يا لك من جميلة يا أصيلة...

وضحكت ضحكة يتيمة ألجمتني والدتي حينها وهي تضع يدها على فمي..

. كوني رزينة يا أصيلة...يا لك من طفلة.

. لكنني طفلة كبيرة...

مضت تلك الليلة بكل همزها ولمزها ونصح وإرشاد منقطع النظير حتى نفرت من الجمع كله...

و تساءلت أخيرا.

. أحمد من هي تلك الفتاة التي لم ترفع نظرها عنك أبداً.؟

هي أصيلة مثلك من قريباتي ود أهلها لو يزوجونني إياها، لكنني لا أتزوج إلا أصيلة واحدة...

. أصيلة.!؟

[9] حي في دمشق قريب من حي بغداد

. وتشبهك

. لا.. أنا لا يشبهني أحد..

. وانفجر ضاحكاً، ساخراً من مكر النساء، لكن يقيني كان يسبقني وغموض أحمد كان يسعدني جداً.

قضينا ليلتنا في فندق الفيصل في سهل الزبداني[10]...قدمت كل مراسيم المرأة المحبة، لكنني لم أتوقع أنني سأصاب بنزيف قاتل من جراء طيش أحمد وتهوره، ولأن سفرنا بات بعد يومين، كان لابد أن أتماثل للشفاء بشكل من الأشكال، لأدخل أول مرة في حياتي عيادة نسائية وأرى خيبتهم وحملهم وتأوهاتهم المخيبة للآمال..

ما أزعجني وولد الحنق والغيظ الكبيرين حينها إصرار أحمد على مصاحبتي إلى طبيب وليس طبيبة، ودفعه رغماً عني لقبول طلب الطبيب عندما قال لي:

. اخلعي سروالك مدام..!

. . .

[10] فندق 4 نجوم كان حينها قد بني حديثا

في منزلنا الجديد

كل شيء حولي جديد تماما وأنا أدخل عالماً مختلفاً لم يخطر لي في يوم من الأيام أن أعيش وأحيا فيه، أحسست بتلك النقلة منذ وطئت قدماي أرض هذه البلاد، منذ بدء إجراءات الدخول إليها كإجراءات روتينية، وحتى الوصول إلى دارنا الجديدة، أو عشّ الزوجية الجديد الكائنة في حيّ الورود في مدينة الرياض، أتلفت منبهرة ومشدوهة من روعة البنيان، وامتداده، أنظر إلى هذا العالم الرائع.. لقد كان مختلفاً جداً عما رأيته في بلاد الغرب، حتى إنني لم أر قبلات ولا عناق ولا سفور في الثياب، وكأنني أتجوّل في مدن الأحلام التي أحب، كدت أعلن دهشتي وانبهاري لولا همسات أحمد التي لم تتوقف وهو يقدم لي تنبيهات وملاحظات وتعريفات بهذا العالم، لكنه فاجأني عندما قال:

. أنت لست في سوريا الآن، فكوني جديّة وحذرة من تصرفاتك جدا..

في اللحظة التي خرجنا فيها من بوابة قدوم المسافرين من مبنى المطار، لفحتني هبّة هواء حارّة جداً ملأت رئتي بهواء غريب الرائحة.. تهيأ لي أنني أدخل عالم الصحارى بامتياز...

كان أحمد قد رتب عشّنا الجديد أجمل ترتيب، وقد غطى الأرض بنوع من الموكيت البني الفاخر ذو الخيط الطويل الناعم، ومدخل المنزل المزين بمرآة عاكسة تجعلك تعتقد أن المنزل أكبر مما هو عليه، كان باختصار منزلا رفيع الذوق، وغرفة نوم واحدة ذهبية المرايا، ومطبخ صغير جدا وغرفة جلوس أنيقة .

لم تكن تزيد مساحة المنزل كما وجدتها وقدرتها عن (65) متراً مربعاً فقط!! أرضي ونافذته مطلة على الشارع بإطلاله فاضحة جداً مكشوفة للمارين!

–يا للهول كيف سأتنفس الهواء هنا؟

لم أستطع، ولم أشأ أن أخيّب أمله حينها، لكن انبهاري بتلك المدينة الرائعة عامّة، ومبانيها الشاهقة متنوعة التنظيم والألوان، والتشكيل العمراني والبشري المتناغم، كل ذلك توقف فجأة عندما رأيت حال المنزل الذي سبب لي خيبة وانزعاجاً رغم جمال قطع الأثاث التي رتبها ووضعها أحمد، كانت متناغمة، ومتناسبة جداً مع تلك المساحة الصغيرة للبيت، ومختلفة أشد الاختلاف عن نوعية الأثاث في بلادنا ببساطتها وتلونها الجميل.

. مبروك علينا يا أصيلة، غداً عندما يصبح لدينا أولاد سوف يكبر المنزل تدريجيا..

واستدرك قائلاً:

. الإيجارات هنا في هذه البلاد باهظة جداً، وبخاصة لأمثالي الوافدين إليها حديثاً..

. . .

مفاجآت غير متوقعة

كان عمل أحمد يستغرق وقتا طويلا، يجعلني أضيع، وأضيق وسط هذا المنزل الصغير! ولا أجد سوى كتبي المدرسية التي أحاول وأنا أراجعها وأقرأ أن فهمها جيداً تمهيدا لدخولي الامتحانات في قابل الأيام، وكلي أمل أن يتقبل أحمد ترددي وسفري عائدة إلى بلادي عندما يحين الموعد المحدد.

. أصيلة.. لقد جلبت لك أفلاماً طازجة من سفارة هنا، وقد باركوا زواجنا، وزودوني بأفلام رائعة كما قالوا.

ثم أردف:

. ربما توفّر لك بعض تسلية في غيابي، ثم تحدثيني عنها ونحن نتابعها معاً في سهراتنا..

صعقت مما رأيت، وكدت أبكي، فقد كانت مجموعة من أفلام التعرّي والإباحة..

لم يسبق لي أن تعرّفت على هذا العالم الجديد، ولا أعرف عن هذا الفن الوافد شيئاً أبداً، هذا إذا اعتبرنا هكذا أفلام مجنونة تنتمي إلى الفن، أم هو عالم خاص مصنوع لطبقة خاصة جدا؟ وهل علي أن أتقبل هذا الجديد الذي أتاني به زوجي أحمد برضا وطاعة وقبول وخنوع.؟

كنت أشعر بإحساس غريب حينها، تسري في جسدي المسكين حرارة حارقة مزعجة مع خدر لذيذ!، وعندما كان يقترب مني أحمد كنت أشعر بشعور أغرب أكثر!! لم كل هذا الشحن؟ هل هو ديدن كل العرسان الجدد؟ ولماذا؟ وهل هم مهيئون دائماً للممارسة دون أي حافز؟؟

قال وكأنه يزفّ إليّ بشرى:

. سوف يستضيفونك في السفارة الأمريكية التي أعمل بها عبر دورات تعليم اللغة الانكليزية، وحوارات لغوية ستستفيدين منها حتماً،، وهو امتياز قلّ من يحظى به حقيقة.. ما رأيك؟

قلت بتردد:

. لا أدري.. أنت أعرف مني بهذه الأمور.

. حسنا عليك أن ترتبي نفسك، وتستعدي للمشاركة بدءً من الغد.

دخلت عالمهم لأول مرة، كان مرتبا بعناية شديدة، الأوراق والكتب والأثاث، وكراسي وشاشة لعرض الدروس كفيلم توضيحي، وزاوية أخرى لتناول المأكولات في فترة الاستراحة، تعتبر لفافات خبز خاصة محشوة بحشو متنوع.

مرت بدايات الدورة رتيبة عادية، وعندما تصاعدت لغة الحوار بات النقاش معهم يحتاج إلى شحن وتحفيزٍ لمواكبة الأفكار التي يطرحونها مثار الحوارات اللغوية:

. ما معنى وطن؟

. من هو أغلى؟ الأرض أم الإنسان؟

. ما رأيك بفكرة اللا عنف؟

. ما الفرق بين الغرب والشرق؟

كانت أفكاراً مدهشة لم تخطر في بالي أبداً، تحمل مائة معنى ومعنى، لم تسعفني اللغة كثيرا حينها كي ألملم بعضي وأرد ردوداً حسنة أو أن أحاور بقوة وتمكّن.. كنت بحاجة لدعم أنتظره من زوجي أحمد بكل قوّة، لكن إحساسا خفيا بالمكر ساورني..

حاول كثيرا مساعدتي لغوياً، لكنني كنت أتقدم ببطء شديد، كل ما لفت انتباهي حينها تودد المدرّسة ومحاولتها زيارتي في منزلي وسط تحفظي الشديد، واستغرابي! ومحاولتي تجاهل الأمر بإصرار.

بعد فترة من الزمن جاء ترشيح أحمد للدخول في دورة خارج المملكة، كانت مفاجأة بالنسبة لي، داهمتني دهشة، فقلت:

. أحمد.. وهل تتركني وحدي هنا؟؟؟.. أرجوك لا تتركني.

. لا تخشي شيئا لن أطيل الغياب، هي عشرة أيام ليس أكثر..

ثم أردف مشجعاً:

. اطمئني، ولا تنسي أن إلى جانبك بعض سوريين في عمارتنا ربما تتزاورين معهم، وستجدينهم كما الأهل في الغربة..

قلت بحزم:

. بل الأفضل أن أعود إلى أهلي خلال تلك المدة، فقد اشتقت إليهم كثيراً

. أصيلة أنت تعرفين ظروفي، ومصاريف زواجنا، والبيت وما إلى ذلك، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.

سكت لحظات ثم قال:

. سوف أتصل بك كل ما سنحت لي الظروف، وأنت اتصلي بأهلك متى شئت، والأفضل أن تجري الاتصال بعد الساعة الحادية عشرة ليلاً لانخفاض كلفة المكالمة..

نظر إليّ بحزم وأردف:

. المهم أن لا تخرجي من العمارة بتاتاً.. هل فهمت؟

تصنّع الهدوء واقترب مني وقال:

. بكل الأحوال سوف نسهر في السفارة معاً فقد دعوني للسهرة مع زوجتي، وسأرحل بعدها آخر الليل.. بعد أن أودّعهم.

سهرة غريبة...

قليلة هي المرات التي كان أحمد يجد الوقت للحديث معي عن قرب، وهدوء، وثقة، ولكن لست أدري لمً كان ينتابني شعور غامض عندما كنا نسهر معا في المنزل، أو في الطريق عندما نخرج معاً للتنزّه، أو لقضاء حاجياتنا من المجمعات الاستهلاكية الزاخرة بصنوف كل شيء، وفي غاية الروعة..

حتى انه داعبني يوما كما نداعب الأطفال، قائلا:

. ما رأيك في أن نملأ هذه العربة حتى آخرها، ونمضي دون أن نشتري شيئاً..؟

ابتسم بطيبة وأردف:

. فقط للمتعة..

ضحكت سعيدة، وقد خيّل لي أنني مع أحمد آخر، غير الذي أعرفه...

قال مرة وهو يتنهد:

. أنا أعيش غربة داخل غربة..

قلت باستغراب:

. كيف ذلك.!؟

. لا يوجد في السفارة الأمريكية جنسيات متماثلة في مكتب واحد، ولا حتى في المبنى ككل، ولا عبر مكاتبنا المختلفة ، فيها كاميرات شبه مجهرية تراقب النفس الذي نتنفّسه، حتى السيارة التي نقودها فهي منحة منهم للعمل وقليلا للاستعمال الشخصي، فيها "رادار" لحساب المسافات التي نقطعها حتى لا نتجاوز المسموح..

سكت لحظات ثم تابع:

. كأنها الترتيبات التي تفرضها منظمة الأمم المتحدة في مكاتبها، وعلى موظفيها، هكذا كنت أسمع من والدي..

أردف باستياء:

. كل شيء يخضع للحساب الدقيق، حتى الابتسامة.!

أجبت بدهشة:

. معقول؟

. نعم يا أصيلة، نحن نعيش في بلدنا الأصلي رغم كل محاولات التنظيم في قمة الرضا والفوضى، ولا نكفّ عن التأفف ونصرخ، ولا يسمعنا أحد.. كأن الصدى عادانا أيضا.. نحن نعيش في عالم من المتناقضات.. نحن لسنا أكثر من شعب مليء بالزعماء، كلنا زعماء، ولا يوجد في بلادنا شعب بمعنى الشعب..

وكأنه يتحدث إلى فضاء غيبي.. تابع:

. لا مجال للمقارنة أبداً بين عالمين متناقضين أشد التناقض، عالم منظم بقسوة، وعالم فوضوي بحنان!!، تخيلي أن صديقي في بريطانيا كان قد اشترى منزلا لقضاء وقته حين يريد إبرام صفقة ما، فلما سأل جاره أن يدفع عنه ضريبته السنوية قال له:

–ادفعها مقابل ماذا؟

الخلاصة إننا لا نحترم أحداً، حتى ولا نحترم حتى ذاتنا، وهم يعتقدون أنهم يحترمون الجميع لكنهم يحترمون في الحقيقة أنفسهم أولاً، فهل تبين لك الفرق الدقيق بيننا؟

ثم أردف:

. الذي يجعلني أتحمل كل هذا، هو المبلغ المالي الكبير المجزي الذي يمنحونا إياه لقاء كل خدماتنا، ما ظهر منها وما بطن، لم أكن لأحصل عليه في أي مكان آخر أريد أن أختصر الوقت، لقد كانت فرصة نادرة حصلت عليها من خلال عروضهم السنوية...

وضحك ضحكة ماكرة ارتعدت لها مفاصلي ليفاجئني بسؤال ما توقعته أبدا:

. بشرفك هل أنت من المخابرات السورية..؟

لم أجد من الكلمات ما يمكنني أن أدافع بها عن نفسي..فأجبته بسذاجة وعفوية، كنت أخاف أن أفشل بمجاراة مزاحه الماكر...فوجدتني أنحرف بحديثي إلى جانب لم أكن أتوقعه أبدا..

أحاول من جديد السؤال مستفسرة عن بعض أمور لم أفهمها، لكن أغلق ذهنه دوني تماماً، وضاعت مني مفاتيح إعادة تشغيله..

لقد زرع بتصرفاته، وشكوكه بيني وبيني، تحد من نوع يخصني وحدي.. ولا أدري إلى أين سأمضي به بعد ذلك.

وقد بات لزاما علي الآن، أن أرتب أموري اللغوية قبل تلك السهرة الغربية ,و التي لم يشرح لي عنها أحمد بالشكل الكافي، وهو يتوقع مني أنني سأكون على دراية كاملة بكل المراسم تلك، لكنه لم ينتبه أبدا إلى الفرق ما بين أن تخلع شرقيتك قبل دخول هذا العالم، وبين أن تحضرها معك بقوة...

كان المدخل إلى السفارة مترفاً جداً رغم بساطته، وإشارة الصلبان موزعة بتمويه محكم داخل قطع الأثاث بشكل لافتٍ للنظر، وما لفت نظري تحديداً النساء الغربيات السافرات بوقاحة وهدوء غريب...

وزجاجات الكحول مرتبة بعناية بأطراف المكان.. وطعام تهيأ بعناية كبيرة رغم محدودية كميته مقارنة بكرمنا كعرب، لكن حسن التقديم كان يشكل عندي نصف الدهشة..

رحب أحد المسئولين هناك بنا، أمسك بيدي، وقبّلها وسط تحفظي، واشمئزازي وقرفي، لكن أحمد هدأ من روعي قائلا:

. هذه هي التقاليد هنا يا أصيلة..

. إن والدي يعيش في فرنسا، وعلى الرغم من تلك التقاليد، كان يحاول تلافيها قدر الإمكان.

لم يجبني أحمد وانصرف يلبي دعوة أحدهم، وقد غمزه بشكل مثير للدهشة وهو يقول:

. يس..

أثارني المشهد، فالتفت إلى أحمد أسأله:

. ماذا هناك يا أحمد؟

. لا شيء إنه يطلبني بأمر يخص ترشيحي لدورة الترجمة المتقدمة.

وأثارتني مفاجأة أخرى انتفضت وسألته:

. أحمد أنت تشرب!!!!

. نعم ولكن رغما عني لا استطيع إلا أن أجاملهم.

. هل على حساب دينك؟

. إن الله غفور رحيم

. ليس بهذه البساطة يا أحمد.. الأمر طبيعي أنت مسلم، يمكنك أن تعتذر وانتهينا، يجب أن يحترموا دينك..

. وهل احترموا أنهم في بلاد عربية ونتكلم بلغتهم غالبا.؟ الأمور مرتبطة يبعضها خليها على الله...

أردف محاولا الابتعاد عن الموضوع:

انظري بعيدا هناك ..بعضهم يرقص...إن كان الأمر يزعجك فلا داع له..

لم أستسلم حينها لطريقته في الحديث فقلت:

. سؤال وجيه.. ورغم هذا أنت مسئول، فأنت واجهة لبلادك..

اقترب مني أحد الشبان الغربيين قائلا ما معناه:

. هل ترغبين بـ (وغمز مشيراً إلى مكان في الداخل)

. عفوا؟ لم افهم

جاءني أحمد بهدوء وهو يتصنع أخذي جانبا قائلا:

. يريدك إلى الفراش

. ماذا.؟ كنت أهنته بشدّة، أو كنت صفعته.. قـ..

. رفضك يكفي..

. يا أحمد يبدو أنك تعمل في وسط مشبوه، و.....

. اسكتي.. ولا كلمة.. من هنا يبدأ العمل الحقيقي...

. حسبنا الله ونعم الوكيل..

انتهت السهرة المزعجة التي جعلتني أشمئز من ذلك الوسط المشبوه، لملم أحمد أغراضه وحده ورحل في المساء، وسط حنقي وانزعاجي وحقدي الدفين والكبير...وجملته لا تفارق ذهني:

. يجب أن نجاملهم..!

. . .

صباح المفاجآت

مفاجأة غريبة حدثت في صباح اليوم التالي عندما سمعت طرقات قوية وسريعة على باب بيتنا جعلتني أقفز لأفتح الباب، وأقف أما امرأتين أعرف واحدة على أنها إحدى جاراتنا، قابلتني بوجه باش، وابتسامة طيبة وقالت بصوت هادئ:

. صباح الخير

. وبرد فوري قلت:

. صباح الخير..

نظرت إلى السيدة الأخرى وصرخت:

. ساجدة..

نعم.. هي ساجدة بلحمها ودمها تقف أمامي وأنا لا أكاد أصدق:

. هل أنت ساجدة حقاً..؟

أجابتني بصوت ساخر وهادئ:

. نعم أنا ساجدة.. هل تتوقعين أن تهربي مني.؟ سألحق بك أينما تكونين..

وتبادلنا ضحكات صاخبة رنت لها جنبات العمارة كلها، بينما غادرتنا الجارة دون أن ننتبه لها من شدة فرحتنا باللقاء.

يا لجرأتها...

. إلى هنا تلحقين بي يا ساجدة.؟ هل تراها محبة أم ماذا.؟ أعتقد أنك تسألين نفسك هذا السؤال أيضاً أليس كذلك.؟

– نعم لقد رددت هذا السؤال في نفسي عشرات المرات قبل أن أراك اليوم، سبحان الله يبدو أنه قدرنا يا أصيلة أن نلتق دائما ولا نفترق..

سكتت قليلاً ثم قالت باستسلام:

. لا شك في أن سرّا خفيّاً يربط بيننا، وسيربطنا بقوة أكثر فأكثر.. وسترين..

. يبدو أنك على حق، فكم أنا سعيدة بك.

. اسمعيني جيداً، أنا هنا في هذه البلاد منذ عدة أشهر، وقد تزوجت قبل قدومك بشهر واحد بأستاذي في كلية الهندسة، وجئت معه إلى هنا، أرجو أن لا يغرنك تواضع جمالي، لأن جمالي الحقيقي يكمن هنا (وأشارت إلى رأسها).

بادلتها ابتسامة قبل أن تتابع:

. الامتحانات ستبدأ بعد عدة أشهر، ولذلك يجب أن ترتبي أمورك منذ الآن كي نعود معا.

أجبت بيأس:

. هذا إذا قبل أحمد.!

ردت عليّ بغضب:

. يجب أن يقبل.. لماذا هذا الخنوع والاستسلام وأنت على حق.؟ تحرري من ترددك وحيرتك، نحن نحمل العالم كله في قلبينا..

. حسناً.. ولكن اهدئي يا ساجدة، قلت لك حسناً...

مضت الأيام رتيبة مملّة، ولم أكن أعلم إلى أين تذهب ساجدة في كل صباح برفقة جارتها التي أحضرتها لبيتي أول مرة.

في دائرة الملل التي أعيشها وحيدة في بيت صغير، وبلد كبير، كثيراً ما فكرت بأن أقوم برحلة وحدي خارج العمارة، فالجو العام مستقر وطبيعي، ولكن جرأتي لم تسعفني، ولم تسعفني أيضاً في محاولة الطلب من ساجدة أن ترافقني، فقد كانت، كما هي عادتها دائماً تقابل كلامي وحديثي بالسخرية والنقد اللاذع لكل ما أقترح، وهذا ما كان دائماً، وما يزال محل خوف أشعر به في داخلي ولا أجرؤ أن أبوح به.

لكن فكرة خروجي، والتفرّج على البلد والناس لم تفارقني وبخاصة أنا بطبيعتي سيدة محتشمة، أثق بنفسي وتصرفاتي، وأرتدي ملابس سوداء طويلة كما ترتدي نسوة البلاد، ولا أختلط بأحد، فما الذي يمنع أن أقوم بجولة قريبة من البيت والمنطقة..؟

. . .

مصيبة غير متوقعة

لقد اعتدت على الخروج من البيت وحدي كلما سافر أحمد، أضع نقابي، فأجده أكثر أمانا رغم أنني لم أكن قد وضعته بشكل جدي، وثابت بعد، وإن فعلت فسيكون حجاباً عاديا تماماً.

لقد مر على زواجنا عامان، ازداد فيه فضولي لمعرفة شخصية أحمد الغامضة، وفضولي لم يسعفني هنا أبدا، كانت شخصيته تزداد غموضا كلما غصت في ثناياها أكثر فأكثر.!

فكرت بالاتصال بوالدتي قبل خروجي من البيت، فقد كان مما يزيد من حزني قلة أخبارهم وكأنهم يخفون عني أمرا ما، أم تراهم نسوا أن يواسونني في غربتي؟

كان أخي محمد قد وصل للثانوية العامة وأصبح رجلا حقيقياً، جاءني صوته من الهاتف، فلم اعرفه جيداً، فقد غاب عني كثيرا ولم يكونوا يتجرؤون على دفعه للحديث معي كثيراً، ويخترعون في كل مرّة حججا وأعذاراً متنوّعة.

. نحن جميعنا بخير.. كيف أنت؟

. وأنا بخير أيضاً، ما هي الأخبار عندكم؟

. زفت والحمد لله كلما أخبرتنا بأن زوجك أحمد مسافر، تحدث سرقة في عمارتنا هههه

. ما هذا الفأل غير الحسن؟ أتمزح معي يا أحمد؟ بالله عليك أعطني ماما..

. والله العظيم لا أمزح، ربما هو سوء حظ، أو ترابط غير مقصود، لكن والدك متأزم صحياً بعد أول محاولة..

. محمد أعطني بابا حالا..

. لا تجزعي، بابا الآن بخير ..

لا أدري كيف انتهت المحادثة وهم يحاولون بث الطمأنينة في نفسي، وقد اخذ مني القلق كل مأخذ.. المهم الآن أن الـ.! وهي بخير كما زعم والدي...

عدت من نزهتي القلقة.. ونسيت إغلاق الباب جيداً فقد كنت أحمل أغراضا كثيرة من حي الوزارات، وقد جربت حافلاتها وركبت القسم النسائي منها وما زالت تغريني بالمزيد تحدياً لجو العزلة التي أعيشها..

دفع الباب بقوة.. أمسكني من يديّ، لفهما ورائي، ثم دفعني على بطني على الأرض، ثم سريعاً قيدني، وأراه يبحث بعينين نهمتين عن أشياء في البيت، وأنا أحاول الصراخ لكنه سرعان ما عاد وكمم فمي، ولم أستطع الصراخ فسكتت أراقب برعب ماذا يجري وماذا يمكن أن يفعل هذا الغريب الجريء..

كان يبحث عن شيء لا أعرف ما هو، فقد فتح أبواب الخزانة بعصبية، ونثر الثياب كيفما اتفق، ثم راح يفتح جوارير الطاولة والفوتيه، ويقلب كل شيء بفوضى غريبة، وبعد قليل لا أعرف إذا كان سمع جلبة أو حركة، إذ سرعان ما غادر البيت بعد أن ضربني على ظهري.. وهو يصرخ:

. حيوانات..

خرج فورا وصفق الباب وسط نشيجي وبكائي وصراخي المفجع...

دخلت الحمام أحاول أن ألتقط أنفاسي تحت سيل من الماء البارد، وفجأة عادت صورته إلى فكري، فقد كان هو نفسه من تصنع النظر إلى حفريات الطريق ببزته الرياضية عندما مررت من جانبه وأنا خارجة من المنزل، لم ألتفت إليه حينها ، ولم يلفت نظري أبداً...

دق الباب كثيرا من جديد، لكنني لم استجب ولم أفتح لأحد أبدا فقد أحكمت إغلاقه، حيث كان بكائي يغطي روحي تماما...

يومها زارني جدي في حلمي، كان مبتسما وحزيناً وهو يربّت على كتفي وسط ذهولي متسائلة دون أن أجد جواباً:

. الآن يا جدي؟

. . .

ترقيع بلا ترقيع

لم يسفر محضر الشرطة عن نتيجة حاسمة رغم رؤيتي لجمع كبير من المشتبه بهم الذين عرضوهم عليّ للتعرف على الجاني..

وشاءت الظروف السيئة أن تتوالى هواتف خاطئة تزيد الطين بلة، كان لجوئي لجارتنا منى تلك التقية النقية مواساة لنفسي المحطمة.. تقرأ كل صباح على الجارات بعض أحاديث رياض الصالحين بصوت خاشع عذب، وتفسر ما شاء لها أن تفسر...قد وقع في قلبي نور جميل، وشمس باهرة النور.. لم أكن قد ذقت هذا الطعم العذب من قبل، فالاستماع غير المعاينة حتما، وما أحزنني جدا سخرية أحمد مني لما زينت له الموضوع بشهية كبيرة وسعادة عظيمة...

. مهما فعلت فلن تصلي لعالم الحضارة إلا لو دخلت وجربت ما جربته...

لا أدري ما الذي جعلني أصبر على هذا التناقض الفكري بيننا، فقد كانت تربيتي ممزوجة بالصبر، وللصبر حدود...

كان قد اقترب موعد الامتحانات، وباتت دراستي هامة وساجدة تشجعني على أن نسافر السفر معا، لكن أحمد دوما كان مختلفا بقناعاته معي بشكل لافت وغريب...

. انتظري حتى أرتب نزولي وسفري معك و لو كلفك الأمر خسارة امتحان مادة أو اثنتين

. !!!!

سبقتني ساجدة، ولم انته بعد من حضور الدورة الثالثة من تعليم اللغة الانكليزية.. لكنني كنت قد بدأت انفر تماما من حواراتهم المستفزة في السفارة، ومن الأفلام السياسية الملوثة بروح النازية الواضحة، وكأن الأفلام السياسية لا تحوي غير تلك القضية السياسية اليتيمة الهولوكوست!!!

لقد ثأروا من العالم كله وأسالوا دماء كل الأجناس البشرية وماذا بعد؟ وما زلت أعتذر لمدام شانون عن زيارتي لها وزيارتها لي، وما زالت تتصل بي وتسأل عني بدماثة، وصوتها الواثق الرنان يدهشني حقا!.

أتاني أحمد مسرعا يوماً، وقدم لي بطاقة طائرة مختلقاً كما عادته، أعذاراً بسبب التزامه بالعمل الذي يبدو أنه لا ينتهي أبداً معرباً عن ضرورة سفري الآن بعد أن فاتني تقديم امتحانات نصف المواد، وسط غضبي وحزني..

تساءلت كثيراً، وكثيرا جداً، وكان في كل مرة يرتب جوابه وحجته، وكأنه قد خطط لكل هذا من قبل.!

سافرت باندفاع ولأول مرة بعد غياب عامين من الظمأ والشوق والألم، كان من أجمل ما فعلته اصطحاب هاتف ساجدة معي دون أن أعرف سبباً وهي جارتي وقريبة مني دائماً.

كان هواء منزل أهلي ساكناً جداً، وقد رافقني أخي محمد مع والدي إلى المنزل، وسط دموع والدي التي كنت أعرفها جيداً...

عانقني بقوة قائلا:

. هل ستعودين إلى هناك قريبا؟

أثار سؤاله استغرابي الشديد وكأنه تردد في البوح عن أمر ما...

مضت الأيام رغم جمالها تميل للرتابة كالسابق، وأخي يخطط للسفر مثلي..

لست أدري كيف خطر في بالي فجأة أن أتصل بأهل ساجدة...

. توفي زوج ساجدة يا أصيلة بسبب حادث أليم في طريق السفر، ناقة ظهرت فجأة لم يتوقعها.

كان العبء والفاجعة مؤلماً جداً ومربكاً، وقد عوضتها المملكة براتب شهري لأنها اعتبرت الحادث إصابة عمل..

إلى هنا كان ألمي يفطر قلبي، كيف زرع حب ساجدة في قلبي، تلك العفريتة المتحركة دائماً والتي وحد القدر مسارنا بتشابه غريب.

صحوت في صباح اليوم التالي على صراخ والدي وهو يوقظني غاضبا:

. ماذا فعلت بأحمد يا مغضوبة؟

فاجأني، لكنني تماسكت وسألت بهدوء:

. لم أفعل شيئا والله يا والدي ..جئت لامتحن وأعود فقط، نحن سمن على عسل..

. بل قولي سمن على قطران، يبدو أنك لن تعودي،

ألقى ورقة غريبة في وجهي وأردف:

. هذه ورقة طلاقك يا أصيلة.. وقعي عليها بالاستلام، لا سامحك الله أبداً..

. طلاقي؟

أنا لم أختلف مع أحمد أبداً، لم يحدث بيننا خلاف فعلا ، فقد كنت مثال الزوجة المطيعة والله العظيم..

. فكري جيداً وراجعي أمرك لنعرف السبب ويبطل العجب.. ألم أقل لك لا تعودي لي خائبة الرجاء ؟ألم أحذرك جيدا؟

أصبت بالدوار وكاد يغمى علي من هول الفاجعة، ولم أجد رداً مناسباً، فمصيبتي الكبرى ألجمتني تماما فلم أكد أصحو من كارثة ساجدة حتى أتتني تلك..

.يا الله ماذا فعلت؟

باءت كل محاولاتي بالفشل للاتصال بأحمد.. وكأنه باعني في يوم وليلة،و دون أن يبين لي سبب إعدامي.. أو يترك لي جلسة للدفاع عبر محكمته التعسفية..

لم يخطر في ذهني أمر الرقعة حينها فقد كنت غارقة في مصيبتي ومصيبة ساجدة.

ورغم هذا وجدتني أفضل الوحدة وأنا أسمع بعض همس ممن حولي:

. مطلّقة...

. . .

وفاة أبو محمد

مضت الشهور وأنا أعيش في حالة حزن وألم وحيرة، ما الذي فعلته حتى يصيبني هذا العقاب الظالم.؟ لم يعد ذلك الود الذي كان بيني وبين والدي، وفقدنا متعة الحوار بيننا الذي كان بلسماً لروحي، كأن صاعقة كهربائية حطّمت كل الجسور التي كانت قائمة بيننا..

كنت أتساءل بيني وبين نفسي، كيف لو علم والدي بقسوة معاناتي في تلك البلاد.؟ وكيف أتعّرض للسرقة في بيتي وكان يمكن أن أتعرّض لما هو أقسى وأصعب لو كانت المعاناة تمسّ الشرف.! أو القتل.؟ كيف يمكن أن أفهمه أن لا ذنب لي في كل ما حصل وجرى، وإنني مظلومة..مظلومة, وأن المفاجأة صعقتني كما فاجأته.؟ كل هذه الأمور كانت تتعبني، وتجعلني أكره نفسي، وأحاول أن أبتعد عن الاختلاط بالناس والمجتمع..

أشعر في صميمي أنني لست قادرة على مواساة ساجدة، ولاهي قادرة على مواساتي، بتنا في الهم سواء، وما أسعدني رغم حزني أن شيئا ما بات يتحرك في أحشائي وأحشاء ساجدة..!

هل هي صدفة قدرية.؟ أم هو لقاء أرواح كما يطلقون عليه.؟

توفي والدي فجأة، لم يكن مريضاً، ولم يشعر بأي أعراض غريبة، ربما هبوط لياقته الصحيّة بشكل تدريجي سبب لنا الكثير من الحزن، وربما كان للأثر الاجتماعي الذي تركه أمر طلاقي الغريب على نفسه شكل أثراً سلبياً عميقا، ولست أدري هل كان حدثا عفويّا.؟ أم هو المسار المنطقي الذي يمرّ به الناس في حياتهم.؟

ما تناهى إلى سمعي يومها , حوار هاتفي لفت نظري,عندما كانت والدتي تحدث أختها الصغرى أن والدي قد خسر مدخراته المالية معظمها , وذلك عندما صادروها في مطار شارل ديغول عند عودته الأخيرة ,و بقرار إداري ظالم ومجحف، وأظن أن أمراً كهذا كان يكفي كي يسبب له ألماً وحسرة، وقد يقضي على بقيّة حياته لثقة بمن حوله كانت لديه , هذا القرار كان يعني لي الكثير والكثير جدا...

ما زلت أملك فضولا كبيراً..، خاصة إنني تألمت حينها كثيرا وبات الأمر لا مناص منه لطرح مائة إشارة استفهام على والدتي لمعرفة تفاصيل التفاصيل، لكن الموقف كان جللا، ولن أحملها عبئا إضافيا يزيد حزنها ووجدها، لكنني سأ سألها يوما ما.

لقد تنكّر له معظمهم وجل من تأمل منهم الخير، فابتعد عنهم وعن عمد، ودون سابق إنذار،وبصمت مخيف مفاجئ, وابتعد حتى عن دائرة الأضواء الاجتماعية ..

كان حين يتأمل كثيراً في تلك السماء الزرقاء أشعر وكأن شهاباً أحمر اللون دخل قلبه الحزين، فاخترقه، كأنه يدعو بدعاء أخرس خفي وخاص لا يفهمه الجميع، لقد أخذه تقدم العمر بعيداً جداً عنا، وعن مراميه التي كان يبحث عنها، كنت أتذكره جيدا عندما كان يأخذنا مذ كنا صغارا لنقدم ما تجود به أنفسنا لدار الأيتام، وخاصة في عيد الأضحى وما أدراك ما عيد الأضحى.! كان عملا يفوق الروعة ذاتها, لا أدري ما الذي ذكرني بهذا الآن!.

لقد اعتزل العالم إلا من مكتبته، ربما لم أفهم جيداً لماذا ينفصل عن العالم، ويلتصق بالكتب.؟ لكنني وعلى الرغم من محاولاتي المستمرة، لم أستطع دخول عالمه الجديد والذي دخله راضياً وبقوة، بعد أن أعيتني الحيل، لأتركه حبيس غرفته ومطالعاته، وأحضر إليه بعد ذلك بمصيبتي الجديدة لأزيد الطين بلة..

يا لحرقة القلوب الكسيرة، فأنا أشعر باقتراب الموت أكثر منه...

جريح ومكسور، يحاول أن يواسي جريحاً ومكسوراً.. يا للسخرية.!

دق باب المنزل ففتحته بنفسي رغم التنبيهات بألا افتح باباً قط حتى لا يتحدث أحد عني بالسوء.. وحتى لا أفتح شهيّة الآخرين من الظرفاء والباحثين عن حكايات الناس وأسرارهم، بل وإضافة تهم وشبهات على أقل تصرّف يقومون به ولو عن حسن نيّة، فكيف بامرأة صبيّة مطلّقة..!؟ لكنني تقدمت بكل قوّة، وفتحت الباب متحدّية نفسي، والتقاليد السخيفة:

. أنا جابر عبد الوهاب..

ثم أتبع كلماته قائلاً:

. البقاء لله..

. حياتك الباقية

. –هل في البيت رجل يمكن أن أتفاهم معه ؟

. نعم، أخي وأنا.!

صوت أمي تنهرني على تصرفي الأرعن، لكنني شعرت، وبدافع غرائزي، أن حضوري مع هذا الرجل الغريب أمر على غاية الأهمية..

همس السيد جابر عبد الوهاب بعد أن سمع ملاحظة أمي:

. أقدم لك نفسي.. أنا دكتور عراقي، أحمل شهادة دكتوراه بالأدب العربي..والعبري والدك يعرفني جيدا..

وقف أخي بيننا، فرددنا معاً وعفوا:

. تشرفنا دكتور جابر..

غمز وهو يبتسم ابتسامة طيبة:

. لا تبالي، هذه تقاليد أصبحت بالية..

ولم ينتظر تعليقاً بل تابع بما يشبه الهمس:

. هل يمكنني سؤالك عن.....

وقبل أن أعرف السؤال، ودون مقدمات قلت باهتمام:

. أعرف سؤالك، انتظر قليلاً حتى أحضره لك.!

. لا يا ابنتي، لا أريد شيئا الآن، وأنت تعلمين الوضع في العراق..!

التقط أنفاسه وتابع بحزن:

. العراق مقبل على أزمات مخيفة، ومرعبة، الغزاة يعملون بكل قوتهم على دك أرض العراق دكا، وأنا، كما كل الشرفاء في العراق لم نسمح بتمرير ذلك مهما كانت التضحيات، سوف تبقى العراق عزة الأمة وسنام الحق، إنها مفتاح الشرق كله..

استدرك قائلاً:

. كل ما أتمناه أن يكون شعبها واعياً ومدركاً لما قد يجري في المستقبل القريب، وأن يفتح حواسّه كلّها وينتبه إلى ما يحاك له في الظلام، ولا ينجرف مع من يريد به المكر والخديعة، كل شيء يجري كما قيل في تلك الرقاقة وكان صاحبها اطلع على ما خفي وغاب..

–عفوا؟

سكت قليلاً ثم قال:

. بكل الأحوال هذا مرور فقط عبر أرض سورية الحبيبة، وسوف نلتقي كثيراً بإذن الله...

خرج الدكتور عبد الوهاب، وترك أمام دهشتي إشارات استفهام لسرعة انصرافه، وما أن خرج أخي محمد من البيت، حتى أسرعت لأفتح درج الخزانة، لم يبق الآن من ريح أبي وفرص بره الكبرى سواك يا رقاقتي الغالية.. ويا لهول دهشتي عندما لم أجد الأمانة التي خصّني والدي بحملها، كان الدرج خالياً تماماً، وأنا على يقين بأنني وضعتها فيه بيدي هاتين.

كدت أصرخ، وبدأت أنتحب، لقد اختفت الأمانة.!

وضعت يدي على فمي وأنا أشعر بحزن ملك كل حواسي، وكأنني لن أتحمل المزيد من الحزن والألم بعد الآن...

ارتديت ملابسي على عجل وأنا أبكي بنشيج عال وسط نداء والدتي:

. أين ستذهبين في هذا الوقت وقد أوشك المساء أن يحلّ.؟

. دعيني وشأني، أكاد انفجر، سأخرج ولن أتأخر.

لست أدري لماذا تهيأ لي أن هذا الشخص الواقف على جانب الطريق هو فادي.! وكيف يكون ذلك وأنا منذ ارتبطت بأحمد أخرجته من فكري ومن كل ما كان يعتمل في صدري من مشاعر خفيّة لا أعرف ماهيتها، وعندما اقتربت من ذلك الشخص تبيّن لي أنه يشبه فادي ربما، لكنه ليس هو.. بل وكيف يخطر ببالي أن يكون هو فادي وقد أخبرتني والدتي منذ زمن بعيد أنه سافر إلى أمريكا من أجل العمل، والحصول على الجنسية، وربما لن يعود إلى هذه البلاد أبداً..

تجاوزت الشاب الواقف ودموعي تنساب على وجنتيّ، لا استطيع منع نفسي عن ذلك، ولم أبالي بنظرات الناس المتعاطفة مع دموعي، ولا بملاحظاتهم المختلفة..

يا لحظي العاثر.. لقد ضاع مني كل شيء.. كل شيء.. ضاع والدي وضاع رضاه عني، وأضعت زوجي أحمد، وضاعت مني اللفافة الأمانة، ماذا بعد يا أسوأ أصيلة في الكون؟ حظ عاثر بامتياز..

. لا.. لا أحمد هو الذي ضيّعني، هو الخاسر، وهو الماكر الخبيث..

وبصقت على الأرض حرقة وألما...

خطواتي المتعثرة تأخذني إلى أمكنة لا أعرف عنها شيئاً، أتجوّل على غير هدى، ثم لم أدرِ، ولا أعرف كيف دخلت إلى فندق كبير بعد أن سمعت غناء يأتيني من داخل المكان، وأقول في سري:

. منذ متى لم يدخل الفرح قلبك يا أصيلة؟

جلست وحيدة ولكن وسط الهرج والمرج والغناء والطرب، بعيدة في زاوية مهملة أتمتع وحدي بغربتي وحزني، أخاف بل لا أريد أن يراني أحد، ولا أريد أيضاً أن أرى أحداً..

بعد لحظات، صحوت من غفلتي..

رباه.. ما الذي أدخلني إلى هذا المكان.؟ يا لسوء حظي وطالعي وتفكيري..

وقبل أن أتّخذ خطوة تالية فوجئت بالنادل يقترب من مكان جلوسي، ويدعوني بكل أدب للانضمام إلى مائدة المطرب (فلان)..

هل بقيت في قلبي وفكري مساحات لولوج مغامرات جديدة.؟

وهل وصل بي الحال إلى أن أخون أصيلة؟

ثم لم أتوقع مفاجأة أخرى صعقتني..

ساجدة هنا..؟ يا الله وتجلس برفقة شاب لم أتبيّن ملامحه، فقد كان يجلس بعيداً ويبدو لي ظهره فقط..؟

وما أن رأتني حتى نهضت واقتربت مني وقالت بدهشة:

. آخر مكان يمكن أن أتوقع تواجدك فيه يا أصيلة..؟! لكنني بدافع غريب جئت إلى هنا على أمل أن التقي بك..

. وكيف عرفت أنني سأكون هنا؟

. أليس هذا فندق "سميراميس.؟"

. نعم، هو بعينه

. أليس هو الفندق الذي كان والدك يعقد جلسات التحكيم فيه؟

. نعم وهذا صحيح أيضاً...

. أنت يا أصيلة تبحثين عن آثار والدك.. تشمين رائحته بحالة لاوعي، لكنك تلعبين بالنار الآن , ألا يكفي لقاءاتك من وراء المسنجر

. ساجدة ماذا تقولين؟ وعن أي لقاءات تتحدثين.؟ ومع من.؟

. لا شيء.. لكنني عرفت وكفى، قد نجوت بأعجوبة، هل نسيت أنك كنت قد دعوتني للحوار الحضاري هناك!

وضحكت ضحكة ماكرة ملؤها السخرية!

. لا .لا أذكر..

. إن كنت لا تذكرين فانا أذكر ذلك جيداً، امتصاصا لوقت فراغ رميناه في سلة المهملات وكأننا نرمي عمرنا فيه..

–خبيرة نفسية أنت، لا أريد الخروج دعيني وشأني.. أنا أعلم ماذا أريد من الحياة

– لا لن أدعك أبداً، ومعي صديق قديم، ولدينا ما نقوله لك وزيادة...

. لا أحد يدري بمصيبتي..

. بل مصيبتك هذه سوف تدفعك لتعمّد سلوك الانحراف، وأنت بخير، انظري لمن هو دونك في النعمة، أنسيت لما أمسكت بك بالجرم المشهود عبر المسنجر وكشفت لك عن شخصيتي.؟ كنت ستبيعين نفسك رخيصة.. كيف كنت ستفعلين؟ كيف؟ كيف؟

. لا تتدخلي في حياتي بعد الآن لو سمحت، أنا اعرف متى أتوقف...

– سأتدخل وأتدخل.. أصيلة لا يمكن أن تضيع بسهولة أبداً، ألا تدرين انه لا أم لي ولا أب؟ فخالاتي تربين مع زوجة أب ظالمة جداً لن تتخيلي سوء الأمور حينها، ومدى الإهمال الذي أصابهن، اتفقن

جميعاً على الانتحار معا من سطح البيت المتهالك، وعاشت خالتي معوقة مسكينة، وهي التي ربتني.. أصيلة أنت بخير.. أرجوك أن تفهمي .

سكتت والدموع تهطل في عينيها ثم قالت بحنان:

. إذا لم يكن من أجلك، فمن أجل الساكن في بطنك، و بطني أيضاً، إنها الأمانة الحقيقية، ومن هنا تبدأ رسالتينا معاً.

قفز إلى ذهني رد مضحك خجلت منه بعد ذلك، لقد كان ساذجا جدا وفي غير مكانه:

. وأم أنطون حامل الآن بفضل عملية أطفال الأنابيب إنها حامل وهي في سن الأربعين.!

لقد بكت ساجدة بحرقة، وسالت دموعها بغزارة على وجنتيها ألماً وحزناً على الحال الذي وصلت إليه بجنوني وبحثي عن سلوى لروحي، كنت عاجزة الآن عن مسح دموعها، وما زلت أعيش في غيبوبة فكرية، وصراع بين ذاتي وذاتي...

. لن أنسى عمري ذاك الحادث المشئوم، و زوجي سامي يكيل اللوم والسباب والشتائم على رأسه طوال الطريق وقد فشلت في تهدئته، لقد تخيّل دائماً أن والدتي هي السبب في كل شيء...

وقبل أن أتماسك جاءتني من ساجدة المفاجأة الكبرى عندما قالت:

. يا أصيلة، فادي يعرف الكثير عن أحمد، ولا تنسي أن فادي هو تلميذ من طلاب زوجي رحمه الله..

. فادي.. وما الذي ذكّرك بفادي الآن.؟ ثم ماذا يعرف عن أحمد.؟

في تلك اللحظة اقترب النادل، وهمس في أذني:

. الفنان الكبير ينتظرك، ويريدك سيدتي على طاولته حالاً.

نظر إلى ساجدة وتابع:

. هل تريدين أن ابعد هذه السيدة عنك؟

انبرت ساجدة تقول بغضب:

. بل ستأتي معي يا أصيلة، ستأتي معي الآن، هذه الأجواء ليست لك ولا لي.. تعالي معنا يا أصيلة وعودي إل أصيلة التي أعرفها جيداً..

سوف نقوم بعمل جدي، لم يجرؤ أحد على القيام بمثله أبداً، وسوف ترين ذلك بعينيك..

وكأن هالة من السكون هبطت عليّ، أو إنها لحظة الصحو من سبات مؤلم:

. لا أملك إلا أن أشكرك يا ساجدة، فأنت على حق، وستبقى أصيلة هي الأصيلة أبداً.

وما أن نهضت ومشيت مع ساجدة إلى تلك الطاولة التي يجلس إليها الشاب الغريب، وما أن طالعت صورة وجهه حتى صرخت بدهشة وغرابة:

. من.. فادي.؟

كان فادي هو الشاب رفيق ساجدة في ذلك الفندق، لم يقل شيئاً، بل مدّ لي يده بأدب، فصافحته، حاولت أن أتهرّب من اللقاء معه، لكن عرض ساجدة كان مغرياً جداً، وكانت في الوقت ذاته عينا فادي تنظران إليّ، وتحكي الكثير...الكثير جداً.!

خرجت معهما صامتة، أشعر في قرارة نفسي وكأنني خرجت للتو من عنق زجاجة كادت تخنقني... تحدثا كثيراً، وكنت أستمع بلهفة وكأن ما أسمعه حكاية من حكايات الخيال، فهمت بأن زوجي أحمد كان منغمساً وغارقاً حتى أذنيه بعلاقات مشبوهة مع خال فادي، وفي أمور أمنية كثيرة، وأنه معرض للاغتيال في أي وقت، وأي لحظة على تهمة الخيانة العظمى..

أستمع وأكاد أسترجع كل لحظات حياتي مع أحمد، لكن فادي فاجأني وقال:

. لقد احترقت أوراقه تماماً، وكنت أنت يا أصيلة الطُعم الذي فشل في تحضيره لتكوني شريكة في أعماله، وفي الخيانة..

شد على يدي وأردف:

. تعالي معنا نذهب إلى أم رامي، وسنلتقي هناك بأم زكي، فنحن ما زلنا على تواصل معهما منذ زمن بعيد، وأعتقد أنه عين الصواب أن نبقى متمسكين بأصولنا..

أسررت لنفسي بغبطة:

. جميل جدا أن يكون في عالمنا أمثال أم زكي وأم رامي...

كانت أم رامي تقطف أوراق الملوخية من أعوادها الصلبة، تقطفها بخبرة وسرعة، وتقطع كل ورقة تبدو على وشك الذبول، بطريقة غريبة ما رأيتها من قبل...

قلت بتعجب:

. خالتي أم رامي أليس هذا بالأمر الصعب.؟ ترى متى تنتهي من هذا العمل.؟

. بل من الأصعب يا أصيلة أن نأكل نصف الطعام، ونلقي الباقي في المهملات.. أنا أقرأ سورة البقرة في سري الآن، اطمئني يا ابنتي فانا لا أوفر جهداً ألا استثمرته لله. رضي الله عنك..

اقتربت مني أم زكي قائلة لدى التقاء نظراتنا بتساؤل عميق لكن أم رامي قاطعتها وقالت:

. كان شقيقك محمد يستمع لوصية والدك حول أمر الأمانة، وكان يكتب في الوقت نفسه فحوى كلمات والدك، ثم بسذاجة الأطفال، وكأنه يؤدي واجباً أو فرضاً، أو كي يظهر نفسه مقداماً جاءني مسرعاً يسألني ويحاول أن يفهم ما الذي يجري، وما الذي سمعه، وما هي تلك الأمانة..

لكن أم زكي بفضولها، أصرّت أن تعرف هي أولاً، كان خال فادي عندنا في ذلك الوقت، هدأ من فضول أم زكي، وهدأ من تسرّع شقيقك محمد، وفي الوقت نفسه أمسك بالورقة وقرأ ما فيها من تلك الملاحظات التي كتبها محمد، ومن هنا بدأت الحكاية..

أم زكي همست حينها لمحمد بأنها ستعطي الورقة لأم رامي، لكنها تعمدت أن تلتقي بوالد أصيلة عندما خرج صباحا لبعض شؤون المنزل كي يؤنب محمد..

أمسكت أم رامي بيدي، وقالت بحنان:

. والدتك تعرف عن هذا الأمر، وكثيرا ما اختلفت مع والدك حول أمر الرقاقة تلك بالذات، ولكن يا أصيلة لتعلمي إن الرقاقة بقيت معي، وفي منزلي، وهذا الأمر أكثر حيطة بعد محاولة سرقة منزلكم عدة مرات...

. يا الله، كل هذه الأمر تجري وأنا بعيدة ولا أعلم عنها؟ هذا يعني أن والدي رحمه الله لم يعد حينها يثق بي أليس كذلك.. يا لسوء حظي وطالعي، لقد توفي وهو غاضب عليّ..

انبرت ساجدة تقول:

. لا شأن لك بكل ما حدث، كفاك تأنيباً وتحطيماً لنفسك وشخصيتك، كان والدك يملك إحساس محقق خبير، وقد صدق إحساسه حينها، وكثيرا ما كان يلوم نفسه كيف تركك تمضين إلى قدرك مع أحمد وهو يعرف عنه الكثير، أما طلاقك، فبالرغم عن كل شيء وكل خلفية تقليدية سهّل مهمته...

. ساجدة ماذا تقولين؟

التفت ساجدة إلى فادي:

. فادي هل تعلم انك في حرم الحاجة أم رامي؟ فسامحنا إن اطلنا عليك..

. اعلم وأنا أحترمها وأقدّرها جداً..

اقتربت مني أم زكي مقدمة لي هديتها المعتادة لكل من تحب وتأمل فيهم خيراً...

. تقبلي مني حجاباً، وقارورة مسك..

تذكرت صوت منى وهي تقرأ أحاديث الرسول الكريم صلوات الله عليه.. كان صوتها عذبا فيه طهر الدنيا كلها، وراحة ضمير العالم..

قلت في نفسي:

. نعم يجب أن أتحجب وأرفع راية الإسلام عاليا.. فأنا أصيلة..

أحسست بسعادة غامرة عندما وصلت إلى هذا القرار، وقد شعرت ساجدة بفرحتي فقالت:

. أصيلة.. سوف نقوم أنا وأنت بإنشاء جمعية خيرية للمطلقات سوف نخطط لها جيداً، لن نحتاج رقاقتك ولا أمثالها.. رأس مالنا ما في بطننا هو أثمن من كل ما نملك، هم الزمن القادم، ونحن زمن الحيرة الذي ولى، يجب أن تفهمي يا أصيلة أننا لسنا مرضى نحن مكلومون فقط وسننتصر على جروحنا.. ولكل مشكلة حل ما دمنا على سطح هذه البسيطة..

وصلني صوته هادئاً وهامساً:

. أصيلة

. نعم يا فادي.. ماذا تريد؟

. سأكون أخاً وعوناً لكما في جمعيتكم الوليدة، ولن أوفر جهدا صدقيني فلدي ما يكفي للدعم..

ما زلت على يقين بأن أسرة فادي سببت لنا الكثير من المتاعب، لكنني لم أحقد على فادي في يوم من الأيام، كنت أجد فيه شخصاً متميّزاً وصديقا يمكن أن أرتاح بالحديث معه..

تبادلنا أنا وساجدة الحديث عن الماضي، وعن معاناتنا وهمومنا، ووصلنا إلى يقين آخر وواقعي بأن تصاريف الحياة لا يمكن أن تسير على وتيرة واحدة، وعلينا أن ننتظر، إلى جانب الفرح والأمان، حزن وألم ووداع، إنها سنّة الحياة بتلاوينها ومفارقاتها، ونحن نعيش في كل يوم امتحاناً ينتمي إلى إيماننا وأمنياتنا، وطموحنا، وليس لنا إلا أن ننجو، وإلا فسنكون في عداد الأموات..

إن الاستقرار الحقيقي أن نكون على يقين من عدالة مبادئنا وصلابة فكرنا لننطلق دائما للأفضل..

تقول ساجدة واثقة:

. أثق في أن فادي سيكون عونا لنا لا علينا، هكذا يجب أن تكون عليه الأمور هناك فرق شاسع بين أن تكوني مؤثرة أو متأثرة..

انتبهت إلى فادي يحاول أن يغادر المكان ممتعضا، وكاد أن يفعل عندما قلت بشجاعة:

. فادي.... أنا...!

ولم أستطع أن أنطق بحرف، لكنه ابتسم واقل:

–وأنا، أيضاً.. أنا فادي بشحمي ولحمي، لم أتغير ولن أتغير، أما تلك " اللكن" فأرجو أن نحذفها من قاموسنا.. ولك يا أصيلة أن تطمئني ..

. كيف ذلك.؟

ابتسم وأردف:

. سوف تعلمين لاحقا إنني لم أكن يوما مثل فارس.. آآه لقد تذكّرت، سوف نقوم بقداس له قريبا...

ثم أشار بيده يرسم صليباً على صدره، وكأنه يبلّغ دعاء رحمة لروح فارس.

في مساء ذلك اليوم، وقبل أن يداهمني النوم، جاءني السلطان عبد الحميد بثوبه المزركش الجميل مبتسماً، تقدم بهدوء، خلع عباءته المزركشة، وألبسني إياها..

أحسست أنني كسبت الآن أخاً لم تلده أمي، وآمنت بأن الدنيا، كانت، وستبقى بخير..

تمت

. . .